دلالة الفعل الماضي في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل

*** د. عماد الدّين نايف الشّمّري.**

*** د.عاطف عادل المحاميد.**

الملخص باللغة العربيّة

تناولت هذه الدراسة الفعل الماضي في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، ضمن اتجاهاته المتعدّدة، مبيّنةً الفرق في الخطاب بين الجمل الاسميّة والفعليّة من ناحية، وبين الفعل الماضي والمضارع من ناحية أخرى، موضّحة القيم الدلاليّة المتنوعة، التي خرجت إليها صيغ الماضي، تاركةً بذلك بنيتها الصرفيّة الدّالّة على المضي في أصل الوضع لتدلّ على الحال والاستقبال، وفق السياقات المتنوعة.

وقد وقفت الدراسة على الأشكال المتنوعة التي جاء بها الفعل الماضي في أساليب لغويّة متنوعة كالشرط والاستفهام والطلب والتوكيد والبناء للمجهول وغيرها من الأساليب الأخرى، التي كان للفعل الماضي أثرٌ واضحٌ في بنائها.

Abstract

Dr. Imad-edeen Nayif Alshamare
Dr. Atef Adel Almahameed

The significance of past verb in the Qur'anic discourse of the Israelis

This study dealt with the past verb and its various uses in the Qur'anic discourse of the Israelis. The study clarified the difference between verbal and nominal discourse. It also elucidated the difference in discourse when using past and present verbs.While the study explained the various semantic meanings of the past verb forms which may signal the present and future tense in different contexts, it ignored the morphological structure of the past verb which indicates the past tense.

The study also highlighted the various forms of the past verb in different linguistic styles such as conditional sentences, emphasis, questions, requests, emphasis, passive voice, and other styles in which the past verb has a significant influence on their structures.

*** أستاذ النحو والصرف المساعد/ جامعة الحسين بن طلال/ الأردن، معان.**

*** أستاذ النحو والصرف المساعد/ جامعة الحسين بن طلال/ الأردن، معان.**

المقدّمة

اتّخذ الإعجاز البيانيّ واللغويّ أشكالاً كثيرة، ارتبط بعضها بالجرس والصّوت، وآخر بالألفاظ وانتقائها، وثالث بالنّظم والتّركيب، ذلك النّظم البديع الذي لا يجاريه نظم ولا يدانيه، حارت به الأسماع، وأبهرت به العقول ولانت له القلوب.

أمام ذلك الأسلوب الحكيم المنسجم بآياته مع أحوال المخاطَبين، سواء أكانوا مؤمنين مصدّقين أم كافرين منكرين، تولّدت فرضيّة الدراسة ومشكلتها، التي ترى في الإعجاز اللغويّ أصل الإعجاز، فتقف على آيات القرآن محللةً جُمَله وأساليبه اللغويّة المتنوّعة، للتوصّل إلى دلالات الفعل الماضي في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، وهذه الدراسة هي حلقة ضمن سلسلة من الدراسات المتعلقة بالفعل الماضي، ابتدأت بدراسة سابقة، عُنيت بالتوصيف القرآنيّ لبني إسرائيل، ممّا جاء فيه الخطاب بضمير الغائب، وها هي هذه الدراسة قد تناولت الفعل الماضي ودلالاته في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل باتّجاهاته المختلفة، ولم تغفل هذه الدراسة دور السّياق العام للآيات وأحوال المتلقين، للوصول إلى النتيجة المبتغاة، وهي إظهار ما في القرآن من براعة في السبك والنظم والإتقان من ناحية، وكشف حقيقة بني إسرائيل وفضح زيفهم وبطلان ما ذهبوا إليه من ناحية أخرى.

واتّبعت هذه الدّراسة المنهج الوصفيّ التحليليّ الاستقصائيّ، حيث نهضت بجمع الآيات التي ورد فيها استعمال الفعل الماضي، في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، منوطاً بالعوامل اللغويّة المرافقة للفعل، كأسلوب الشرط والتوكيد والنفي وغيرها من العوامل الأخرى، التي أثّرت في دلالة الفعل الماضي كأسباب النزول والسياق وأحوال المخاطبين، فقد رصدت هذه الدراسة ما طرأ على الفعل الماضي من تحوّلات بنائيّة صرفيّة في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، مبيّنة أثر الصّيغة في كشف المدلولات الخاصة لتلك الأفعال، سواء أكانت مدلولات عقديّة، أم نفسيّة أم اجتماعيّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هنالك عدداً من الدّراسات التي تماست مع مضمون هذه الدّراسة، ومن أبرزها: دراسة (عرفة عبد المقصود عامر) الموسومة بـ (خطاب القرآن الكريم عن اليهود). ودراسة (فوزي سمارة) الموسومة بـ (اليهود في القرآن الكريم)، ودراسة (دلدار غفور) الموسومة بـ (بنية التّركيب الفعليّ في القرآن الكريم (دراسة دلاليّة في آيات الجهاد)، المنشورة في مجلّة القادسيّة في الآداب والعلوم التربويّة، المجلد(١١)، العدد(٢)، سنة ٢٠١٢م. ودراسة (إسماعيل يوسفيّ) الموسومة بـ (السّياق وأثره في توجيه الخطاب القرآنيّ في كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر).

وقد اختلفت هذه الدّراسة عن سابقاتها في أنّها اختصّت بالفعل الماضي واستعمالاته وحالاته المتعدّدة والتحوّلات التي تطرأ عليه في السياق القرآنيّ؛ مبيّنةً دلالة الفعل الماضي البنائيّة والتركيبيّة والسياقيّة، وكاشفةً عن أهميّته الخاصة في الخطاب القرآني لبني إسرائيل، في حين نجد دراستيْ (عرفة عبد المقصود) و (فوزي سمارة) لم تتعدَّيا كونهما دراستين عامتين، أظهرتا بعض صفات اليهود، التي جاءت متناثرة في الخطاب القرآنيّ لليهود، فهما دراستان فكريّتان، أمّا دراسة (دلدار غفور) السابقة الذكر، فقد تناولت بنية الأفعال في موضوع واحد وهو الجهاد، ولم تعنَ ببني إسرائيل على وجه الخصوص، واهتمت دراسة (إسماعيل يوسفيّ) بالحديث عن السياق وأثره في الخطاب القرآنيّ عامة، ولم تختص بخطاب بني إسرائيل.

وقد اقتضت طبيعة الدّراسة أن تكونَ ضمن تمهيد وأقسام عشرة، اختصّ كل واحد منها باتجاه من اتجاهات الخطاب لبني إسرائيل، وأُدرج تحت كل اتجاه الأبواب اللغويّة التي جاء عليها الفعل الماضي، ثمّ أتبعت هذه الأقسام بخاتمة، ضُمّنت فيها بعض النّتائج التي توصلت إليها الدّراسة.

في الفرق بين الخطاب والنّص:

جاء في لسان العرب مادة (خَطَب):" خَطَب فلانٌ إلى فلان فَخَطَبه وأخطبه، أي أجابه، والخِطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطَبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً، وهما يتخاطبان"(١)؛ فالخطاب، إذاً يقوم بين طرفين يتحاوران فيما بينهما، وهما المخاطِب والمخاطَب، أي أنّ– الخطاب – في المعنى اللغويّ يقتصر على اللغة المنطوقة في حالة الحوار(٢)، ويقترب من هذا القول ما ذهب إليه الأزهر الزنّاد في تعريفه للنصّ، إذ يرى أنّه يُطلق على ما به يظهر المعنى، أي الشكل الصوتيّ المسموع من الكلام أو الشكل المرئيّ منه عندما يُترجَم إلى مكتوب"(٣).

وقد يتبادر إلى أذهاننا ونحن نتناول الخطاب مفهوم النصّ؛ إذ إنّ بينهما تداخلاً بيّناً، ولسنا – هنا – بصدد التفريق بين المصطلحين اللذين طال البحث للتفريق بينهما، وتعدّدت أوجهه، وسنقف عند تعريف تفيد منه الدراسة، ومن ذلك التعريف الذي نظر أصحابه للنصّ على أنّه وحدة تواصليّة إبلاغيّة متعددة المعاني، ناتجة عن مخاطِب معيّن، وموجّهةً إلى مخاطَب معيّن، عبر سياق معيّن، وهو يفترض وجود سامع يتلقّاه، مرتبط بلحظة إنتاجه، لا يتجاوز سامعه إلى غيره (٤). وهنالك منْ عرّف النص تعريفاً بسيطاً يسيراً، لا التباس فيه، فذهب إلى أنّ كلّ نصّ هو بناء، يتركّب من عددٍ من الجمل السليمة، مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات، وقد ترتبط هذه العلاقات بين جملتين أو أكثر من جملتين"(٥).

وقد عرّف (بارت) النصّ منطلقاً من الدلالة الاشتقاقيّة لمصطلح النّصّ، فهو عنده نسيج كلمات منسّقة في تأليف معيّن، يفرض شكلاً يكون على قدر المستطاع ثابتاً ووحيداً"(٦)، ولا يخفى على أحد ما يحويه النص القرآنيّ من خطابات متعدّدة، يُمكن أنْ تُمثّل الأنموذج الأمثل للنصّ من اتّساق وانسجام أو ما يتّصل بمستعملي

---

(١) ابن منظور، جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، ط١، دار صادر ، بيروت، ١٩٩٢م ، مجلد ١/ ٣٦١.

(٢) انظر غنية لوصيف، الاتساق والانسجام في قصيدة مديح الظل العالي لمحمود درويش، مقاربة لسانيّة نصيّة، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، معهد اللغات والأدب العربيّ، ٢٠٠٩م، ص٩، وانظر: محمد فكري الجزار، لسانيّات الاختلاف، الخصائص الجماليّة لمستويات بناء النص في شعر الحداثة، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر،٢٠٠١م، ص٣، وانظر: عدنان بن ذريل، النص والأسلوبيّة بين النظريّة والتطبيق، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠ م، ص١١٣، وانظر: سعيد حسن بحيريّ، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، م، ص ٨ و ٩.

(٣) عمر محمد أبو خرمة، نقد النظريّة وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، إربد ، الأردن، ط ١، ٢٠٠٤ م، ص٢٤.

(٤) محمد عزّام، النص الغائب (تجلّيات التناص في الشعر العربيّ)، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠١ م.

(٥) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٣٥، وانظر عمر أوكان، مدخل لدراسة النصّ والسلطة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط٢ ، ١٩٨١ م، ص٧٢. وعبد الهادي ظافر الشهريّ، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط١، لبنان، ٢٠٠٤م، ص ٣٤. ٣٥.

(٦) عدنان بن ذريل، النص والأسلوبيّة بين النظريّة والتطبيق، ص ١٧، وانظر عبد المالك مرتاض، نظريّة النص الأدبيّ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،٢٠٠٧ م، ص٤٧، وانظر صبحي إبراهيم الفقي، علم لغة النص بين النظريّة والتطبيق، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠ م،١/ ٢٩.

النص، سواءٌ أكان المستعمل منتِجاً أو متلقّياً كالمقصديّة والمقبوليّة، أو ما يتّصل بالسياق الماديّ والثقافيّ المحيط بالنصّ من إعلاميّة ومقاميّة[٧]، إذ لا يمكننا إغفال السياق وتناسي أهميته، فهنالك الكثير من الجمل التي تبدو متشابهة مع بعض الفوارق التي تميّز بينها، ولا نستطيع تفسير تلك الفوارق إلا بالرجوع إلى السياق اللغويّ وملاحظة الفوارق الدقيقة التي طرأت بين الجمل، فكلّ مساق من الألفاظ يجرّ ضرباً من المعنى بجزئياته وتفاصيله[٨].ويرى تمّام حسّان أنّ المعنى الدلاليّ يرتكز على المعنى المقاليّ يضاف إلى المعنى المقاميّ، ويقصد بالمعنى المقاميّ المقام أو المعنى الاجتماعيّ، وهو شرط لاكتمال المعنى الدلاليّ وضروريّ لفهمه"[٩]، وهذا يدخل فيما يسمّى بالسياق غير اللغويّ، الذي يُراد به ظروف الخطاب وملابساته الخارجيّة، التي تشتمل على الطبقات المقاميّة المتباينة، التي يُنجز ضمنها الخطاب، والتي سمّاها علماؤنا:(سياق الحال أو المقام)، فقالوا : لكلّ مقام مقال، ويشمل ذلك الزمان والمكان وحال الأشخاص المتكلّمين والمخاطبين، وهذا النوع يشتمل على القرائن الحاليّة، التي تسهم في الكشف عن المراد، ومنها ما سمّاه المفسّرون أسباب النزول[١٠]، وهو عند الخطابيّ (علم المناسبة)، أشار إليه من خلال تناوله لخاصيّة الانسجام في النص القرآنيّ، الذي هو في نظره كالكلمة الواحدة، باحثاً في الارتباطات الموجودة بين الآيات والسور والكلمات[١١].

إنّ النصّ القرآنيّ يتجلّى في كونه خطاباً موجّهاً للآخر المتلقي المخاطب بما في القرآن من معارف وتشريعات وعقائد [١٢]، ومن مواضع التجلّي اللغويّ في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل الاتّكاء على أفعال بعينها وتوظيف صيغة الماضي من مجرد مبنى صرفيّ، مروراً بالمعنى النحويّ للإسناد إلى ما وراء الجملة لتأكيد أنّ كفرهم كفر عقيدة [١٣].

ويُمكن لنا أنْ نعُدّ افتتاح الكلام مع اليهود والنصارى ظاهرة؛ فسورة البقرة افتُتحت بذِكر الكتاب، ثم أعقب ذلك ذكر الكفّار، ثم المنافقين، ثم أمر الناس–قاطبةً– بعبادة الله تعالى، ثم ذكر إعجاز القرآن، ثم تنبيه

---

(٧) انظر غنية لوصيف، الاتساق والانسجام في قصيدة مديح الظل العالي لمحمود درويش، مقاربة لسانيّة نصيّة، ص١١، وانظر أحمد عفيفي، نحو النص (اتّجاه جديد في الدرس النحويّ) مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠١ م، الصفحات ٧٥ – ٩٢.

(٨) انظر إسماعيل يوسفيّ، السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآنيّ، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٢١.

(٩) تمّام حسّان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنص القرآنيّ)، عالم الكتب، القاهرة ط١، (١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، ص ١٦٣.

(١٠) انظر مسعود صحراويّ، المنحى الوظيفيّ في التراث اللغويّ العربيّ، مقالة منشورة في مجلة الدراسات اللغويّة، إصدار مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرياض، المملكة العربيّة السعوديّة، ٢٠٠٣م، المجلّد الخامس، العدد الأول، ص٤٢.

(١١) محمد الخطابيّ، لسانيات النص، ص ١٦٥. ١٦٦، المركز الثقافيّ العربيّ، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦ م، وانظرمحمد عبد الباسط عيد، النصّ والخطاب (قراءة في علوم القرآن)، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١٨.

(١٢) أحمد عبد الجبار فاضل، أشكال الخطاب القرآنيّ، دراسة في ضوء نظريّة الحقول الدلاليّة، مجلة مداد الآداب، كليّة الآداب، الجامعة العراقيّة، بغداد،٢٠١٤م، العدد التاسع، ص١٤.

(١٣) انظر عامر عبد المقصود عرفة، خطاب القرآن الكريم عن اليهود: دراسة نصيّة، دار الألوكة للنشر، القاهرة،٢٠١٤م، ط١، ص ٥٨.

الناس بذكر أصلهم آدم[١٤].ويقترب من تلك الحقيقة ماذهب إليه صاحب الصفوة، إذ يقول:" فإنّ الله تعالى لمّا دعا البشر إلى عبادته وتوحيده، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده، ثم ذكّرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام، دعا بني إسرائيل خصوصاً– وهم اليهود – إلى الإيمان بخاتم الرسل وتصديقه فيما جاء به عن الله، لأنّهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة "[١٥] يقول سيّد قطب:" إنّ المستعرض لتاريخ بني إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم، ومن الجحود المنكر، المتكرر الذي قابلوا بعد هذا الفيض المدرار"[١٦].

وستقوم الدراسة بالوقوف على الأفعال الماضيّة، وفق سياقاتها المتنوّعة؛ لتبين لنا الدلالة التي أدّاها الفعل الماضي في اتجاه الخطاب ضمن الأساليب اللغويّة المحيطة به في الجمل، وظروف المقام الذي قيلت فيه جملته:

أولاً: الخطاب من الله سبحانه وتعالى إلى بني إسرائيل:

لقد بدأ الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل في الآية الكريمة﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾(البقرة:٤٠) متّخذاً من الأسلوب الإنشائيّ كـ _ الأمر ، النهي، الاستفهام الإنكاريّ _ مفتاحاً للخطاب، من خلال تكرار بعض الأفعال، ومنها الفعل (اذكروا)، الذي جاء مباشرة بعد ذكر جملة النداء:﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(البقرة:٤٧)، وانتهى الخطاب بالأسلوب الإنشائيّ في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾(البقرة: ٤٨) بالتذكير بيوم القيامة، والدارس المتمعّن في سورة البقرة يلمح المحور الرئيس الذي ينتظمها، وهو موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلاميّة في المدينة واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها[١٧]، وقد جاء الفعل الماضي في هذا الاتجاه من الخطاب في سياقات عديدة، نوردها كما يلي:

أ. الفعل الماضي بعد (إذ):

إذْ: اسم ثنائيّ الوضع، مبنيّ لشبهه بالحرف وضعاً أو افتقاراً، وهو ظرف زمان للماضي، وما بعده جملة اسميّة أو فعليّة، اقترنت (إذ) بالفعل الماضي، وقد ذكرها سيبويه في باب الجزاء[١٨]، وهي عنده " ظرفٌ لما مضى من الدهر، وهي بمنزلة (مع)، ولا يليها إلاّ الفعل الواجب، وذلك قولك:" بينما أنا كذلك إذ جاء زيدٌ،

---

(١٤) أبو حيّان الأندلسيّ (محمد بن يوسف)، تفسير البحر المحيط، دراسة وتعليق وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١ م، ١ / ٣٢٧.

(١٥) الصابونيّ، محمد علي، صفوة التفاسير، إشراف مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١م، ١ / ٤٥.

(١٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٣٢، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، القاهرة، ١/ ٦٥.

(١٧) سيّد قطب، في ظلال القرآن، ١ / ٢٧، ٤ / ٢٣٢، ٣ / ١١٩.

(١٨) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠ هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٣،١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م، ٣/ ٥٧.

ج ٣ ص ٥٧.

وقصدت قصده إذا انفتح على فلان، فهذا لمّا توافقه وتهجم عليه من حال أنتَ فيها" [١٩]، والسبب في ذلك هو (إذ) فأصل وضعها أن تكون ظرفاً للوقت الماضي[٢٠].

وقد شاع استخدام (إذ) في القرآن الكريم، في ذكر الماضي والتذكير به، وسنستعرض دلالة هذه الأداة في ثنايا الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل في اتجاهاته المختلفة تباعاً.

فبعد ذكر الله تعالى الحقائق السابقة عن بني إسرائيل ونِعمه مجملةً، جاء الخطاب بـ(إذْ) الزمانيّة مباشرة، فيُفتتح بذلك صفحةٌ جديدةٌ من أشكال الخطاب، فلمّا أراد الله تذكير بني إسرائيل بالنِّعم الكثيرة والمِزيّات العظيمة، التي خصّهم بها وحباهم إيّاها جِيء بالفعل الماضي، الذي أدّى بإشارات واضحة في تلك اللوحة التذكيريّة الإيقاظيّة دوراً خطيراً، فأولئك القوم قد نسَوا، بل تناسوا ما قُدّم لهم من نِعم؛ لذلك نجد الخطاب القرآنيّ قد أدرج تلك النِّعم والفضائل تباعاً، فالأفعال الماضية بعد (إذْ) جاءت لتؤكّد ما كان قد تناساه الأبناء من بني إسرائيل في عهد النبي محمّد_ صلّى الله عليه وسلّم _من نِعم أولاها الله لآبائهم، الذين كانوا أذلّةً صاغرين، قد ذاقوا صنوف العذاب والتنكيل، فيعيد الله على خيالهم ويستحيي في مشاعرهم صورة الكرب، الذي كانوا فيه. باعتبار أنّهم أبناء هذا الأصل البعيد _ ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب[٢١]، وأورد القشيريّ في تفسير هذه الآية قوله:"منْ صبر في الله على قضاء الله عوّضه الله صحبة أوليائه، هؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضرّ من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياء، وجعل منهم ملوكاً وآتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين"[٢٢]، ومن تلك المواضع: قوله تعالى:﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾(البقرة: ٤٩)، و﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(البقرة:٥٠)، و﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(البقرة:٥٢) و ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾(الأعراف: ١٤١).

الأفعال الماضية في الآيات السابقة تحمل كلّ واحدة منها تأكيدين اثنين: أولهما مردّه إلى منشئ الخطاب – الله جلّ في علاه – واهب النّعم جميعها، وهو ممّا يدخل في باب التأكيد التسليميّ، وثانيهما استمدّ قوته من صيغة الماضي الصريح، التي جاءت بعد(إذْ)، فتؤكّد وقوع تلك الأفعال وحصول تلك النِّعم، وهي: تَنْجية بني إسرائيل من آل فرعون، ألدّ أعدائهم، الذين عاثوا فيهم عذاباً وتنكيلاً، ثم الإنجاء من الغرق بفِرْق البحر، وتجدر الإشارة – هنا – أنّ الإنجاء هو من أعظم النّعم؛ فهو هبة الحياة وأصل الوجود، ومن لطيف القول: إنّ هنالك فرقاً بلاغيّاً بين الفعلين (نجّى) و(أنجى)، فقد أشار إلى ذلك فاضل السامرائيّ في باب: الفرق بين (فعّل) و(أفعل)، يقول:" ومنه استعمال (نجّى) و(أنجى) فإنّ الملاحظ أنّ القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجّى) للتلبّث والتمهّل في النتيجة، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإنّ (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص

---

(١٩) سيبويه، الكتاب ٤/ ٢٣٢، و٣ / ١١٩.

(٢٠) انظر السيوطيّ (جلال الدين)، الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١ / ٢٠٤.

(٢١) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن ١ / ٧٠.

(٢٢) أبو حيّان، تفسير البحر المحيط، ١/ ١٩٤.

من الشدة والكرب"[٢٣]، ويمكن لنا أنْ نلحظ بينهما فرقاً آخر، فالإنجاء يكون قبل وقوع العذاب أو المكروه، والتنجية تكون من العذاب والمكروه الواقع.

ومن النعم الأخرى التي أراد الله تذكير بني إسرائيل بها هي عفوه عنهم وتوبته عليهم بعد اتّخاذهم العجل إلهاً﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة: ٥٢)،﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(البقرة: ٥٤)، وتذكيرهم بكفرهم بنبيّ الله موسى وعدم تصديقه، واشتراطهم للإيمان به أنْ يروا الله جهرةً، ومن نِعمه تعالى عليهم بعثهم من بعد موتهم﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة: ٥٦)، وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى، وإدخالهم بيت المقدس بعد خروجهم من التيه، وإباحة الطعام لهم كيفما شاءوا﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(البقرة: ٥٧)﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة: ٥٨)، والسّقية والخلوص من العطش بعد خروجهم من التّيه؛ إذ إنّهم عطشوا في تيههم عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربّه أنْ يغيثهم﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(البقرة: ٦٠)، فتفجّرت عيونٌ، بقدر قبائلهم وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، فجرى لكلّ منهم جدول خاص، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم[٢٤]. و﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾(البقرة:٦٣ و٩٣)، وفي هذه الآية يؤكّد الله عمّا كان في التوراة من واجب الاتباع والإيمان، وكذلك يذكّرهم برفعه الطور، الذي فيه نجاتهم.

وقال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾(البقرة: ٨٣)و﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾(البقرة: ٨٤)،﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾(الأعراف: ١٦٠)، و﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف: ١٦١) أتت هذه الآيات في سياق تعداد جرائم بني إسرائيل، مؤكّدة على عدوانهم وطغيانهم وفسادهم في الأرض، فقد نقضوا الميثاق، الذي أُخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرّم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار[٢٥].

ولابدّ من الوقوف عند الفعل (واعد)، فقد جاء مرّة مسبوقاً بـ(إذْ) في قوله تعالى:﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(البقرة: ٥١)، ومرة أخرى دون (إذْ) كما في قوله تعالى﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾(الأعراف: ١٤٢)، فقد جيء بـ(إذ) مع (واعد) في الآية الأولى؛ لأنّه لم يذكر في الآية الثانية، في سياق

(٢٣) فاضل صالح السامرائيّ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ، دار عمّار، عمان، الأردن، ص ٧٠ – ٧٦.

(٢٤) الصابونيّ، صفوة التفاسير،١/ ٥٣.

(٢٥) الصابونيّ، صفوة التفاسير، ١/ ٦٥.

تذكير الله لبني إسرائيل بجرائمهم وكفرهم بعبادتهم العجل، وهي ممّا تناسوه فأراد الله تأكيد تذكيرهم، أمّا في الآية الثانية فلم ترد (إذْ)؛ لأنّه كان ذكراً عامّاً في سياق الخطاب الإلهيّ مع سيدنا موسى.

وهنالك أمرٌ آخر وهو الفعل الماضي (قال) بعد (إذْ) مرّة جاء مبنيّاً للمعلوم ومرّة للمجهول؛ فلمّا جاء في سياق ذكر فضائل الله ونعمه على بني إسرائيل﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَـةَ ﴾(البقرة: ٥٨)، جاء الخطاب الفعليّ مسنداً إلى فاعل صريح وظاهر وهو الضمير المفخّم لله جلّ وعلا (قُلنا). ولمّا جاء الخطاب في سياق الإخبار العام، ولم تكن الغاية منه الذكرى أو التذكير جيء بالفعل الماضي مبنيّاً للمجهول (قِيلَ)﴿ وَإِذْ قِيـلَ لَهُـمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾(الأعراف: ١٦١).

ب. أسلوب الشرط:

الشرط هو ربط واقتران وتعليق أمر بأمر، أو حدث بحدث، أو هو السببيّة احتمالاً وامتناعاً، والشرط عند النحويّين هو وقوع الشيء لوقوع غيره، والأصل في الشرط أن يكون مستقبلاً لأنّه إنشاء [٢٦].

ومن لطائف الأفعال في أسلوب الشرط ما أورده كمال رشيد، يقول:" إنّ الفعل المعبّر عنه بلفظ الشرط إذا كثُر حدوثه استعمل الماضي، وإذا قلّ حدوثه استعمل المضارع، فالماضي أولى بالكثير؛ لأنّه كالحدث، والمضارع أولى بالقليل لأنّه لم يحدث، فهما متشابهان"[٢٧].

وقد احتوى هذا الاتجاه من الخطاب على بعض من الجمل الشرطيّة، وبأدوات مختلفة:

- **أداة الشرط (كلّما):**

ومن ذلك قوله تعالى:﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾(البقرة: ٨٧)، ففي هذه الآية التي جاء الشرط بالأداة (كلّما)، وهي أداة تتقارب في معناها مع الأداة (لّما)، وقد أفادت في موضعها المعنى ذاته الذي أفادته (لّما)، وهو الشرطيّة الزمانيّة، إذ أدّت مع الفعل الماضي(جاءكم) معنىً جليّاً، أكّدت به حقيقة بني إسرائيل وتكذيبهم المتكرّر لأنبيائهم واستكبارهم، وأثبتت حقيقة متأصّلة في بني إسرائيل، وهي أنّ التكذيب بالأنبياء والمرسلين استكباراً استحالت جميعها سماتٍ ثابتةً، إذ كانوا يحكّمون النفس وأهواءها، وقد جاءت هذه الآية لتؤكّد استمرار تلك الصفات من الآباء إلى خَلَفهم، الذين عاصروا دعوة النبي محمد – صلّى الله عليه وسلّم – وتبيّن ضلالهم في اقتدائهم بأسلافهم، وفي الآية ذاتها لطيفةٌ بلاغيّةٌ، تعمّق لدى السامع الحقيقة السابقة وتؤصّلها في ذهنه، وإذ يلحظ في الآية السابقة التّنويع في الزمن باستخدام صيغتيْ الماضي والمضارع، وفي هذه الحالة يفيد الفعل المضارع _ كما هو معروف في أساليب البلاغة_ يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً، فكأنّه_ سبحانه وتعالى_ أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ واستفظاعه لها أعظم[٢٨].

---

(٢٦) سيبويه، الكتاب ٣ / ٩.

(٢٧) كمال رشيد، الزمن النحويّ، دار عالم الثقافة، عمّان، الأردن، ١٤٢٨هـ _٢٠٠٨م، ص ٢٥.

(٢٨) ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت، ٨ / ١٥٩.

- **أداة الشرط (مَنْ):**

وهي أداة الشرط التي تفيد أنّ أصل الشرط هو للعاقل، مفرداً ومثنّىً وجمعاً، مذكّراً ومؤنّثاً[٢٩]، وتبيّن أنّ وقوع فعل الشرط يشترط بصاحبه، وقد برز دورها مع الفعل الماضي في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل أيّما بروز؛ إذ يُقصد بها المخاطبون بالشرط أنفسهم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(المائدة: ١٢)

إذ جاء أسلوب الشرط في الآية السابقة بعد ذكر الله تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، وأخذه العهد والميثاق عليهم، ولكنّهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن والتمسّك بشريعة خاتم المرسلين، وترك ماهم عليه من ضلالات وأوهام[٣٠]، رسم الفعل الماضي (كفر) بعد أداة الشرط (مَنْ) وجوابه الماضي المؤكّد ما كان عليه بنو إسرائيل والطريق الذي يسلكونه نتيجة كفرهم المؤدّي إلى الضلال.

- **أداة الشرط(إنْ):**

أداة الشرط (إنْ) تقترن بالشرط المستقبليّ، والشرط بها قائمُ على السببية الاحتماليّة، وهي من أدوات الشرط التي تقلب الزمن الماضي إلى المضارع، يقول ابن يعيش مورداً قول المبرد:" إنّما ساغ ذلك في (كان) لقوة دلالتها على المضي، وأنّها أصل الأفعال وعبارتها، فجاز لذلك أنْ تقلب في الدلالة (إنْ) ولذلك لا يقع شيء من الأفعال غير(كان) بعد (إنْ) ومعناه المضارع"[٣١]. يقول ابن هشام:" الشرط بـ(إنْ) سابق على الشرط بـ (لو)؛ وذلك لأنّ الزمن المستقبل سابق على الزمن الماضي عكس ما يتوهّم المبتدئون، ألا ترى أنّك تقول:" إنْ جئتني غداً أكرمتك، فإذا انقضى العذر ولم يجئ، قلت: لو جئتني أمسِ أكرمتك"[٣٢].

وقد أدّت هذه الأداة مع فعل الشرط الماضي (أحسنتم) وجوابه الماضي (أحسنتم) أي (إن أحسنتم أو أسأتم) فمردّ فعلكم عليكم، لن ينفع إحسانكم الله شيئاً، ولن تضرّ إساءتكم الله، فهو الغنيّ عن عباده المتعالي بذاته﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾(الإسراء: ٧)، وكذلك الأمر في قوله تعالى:﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ﴾(الإسراء: ٨)، فقد أدّى فعل الشرط الماضي (عدتم) وجوابه الماضي ما ستكون عليه العلاقة مع بني إسرائيل في المستقبل، وهنا تظهر دلالة صيغة الماضي في أسلوب الشرط وتحوّلها للدلالة على المستقبل بوجود أداة الشرط (إنْ)، وتبرز هنا رحمة الله تعالى وسَعة عفوه مع خلقه؛ فبعد كلّ ما بدا من بني إسرائيل من كفر وعناد وظلم، إلاّ أنّه عزّ وجلّ قد منحهم فرصة جديدة ليحدّدوا ما سيكون عليه أمرهم في القادم من الزمن، وكذلك الأمر في قوله تعالى:﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

---

(٢٩) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٦٨.

(٣٠) انظر ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيليّ الهمدانيّ(ت٧٦٩هـ)، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار مصر للطباعة، ط٢٠، ١٤٠٠ هـ _١٩٨٠م، ١ / ١٤٧.

(٣١) ابن يعيش، شرح المفصّل ٨/ ١٥٦.

(٣٢) ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي عبدالله، راجعه سعيد الأفغانيّ، طبعة ٣، دار الفكر، ١٩٧٢ م، ص ٣٣٧.

لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـرُ﴾(المائدة: ١٢)، فقد أدّى الفعل الماضي في أسلوب الشرط بالأداة (إنْ) بعطف عدّة جُمل هي كالتالي (أقمتم) (آتيتم) (آمنتم) (أقرضتم)، حينما أعطى الله بني إسرائيل متطلبات النجاة، التي تجمع أداء الفرائض من صلاة وزكاة وتثبّت عَقَديّ وإيمان راسخ، ليأتي جواب الشرط (أكفّر)، مؤكّداً بغير أداة، فيبيّن ما كان لهم عند ربهم من جزاء حسن بعد أنْ يكفّر عنهم سيئاتهم، ولعلّ في ذلك بُعداً نفسيّاً، فإنْ كان الفعل ماضياً بأصل الوضع فقد اكتسب معنى الاسقبال باقترانه بأداة الشرط (إنْ)، إذ يبدأ . هنا . استعراض لمواقف أهل الكتاب من مواثيقهم، واستعراض ما حلّ بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق، فيكشف الله بذلك حقيقتهم،لإبطال كيدهم في الصفّ المسلم وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم، التي يلبسونها ثوب التمسّك بدينهم، وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدّين، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه.[٣٣].

- **أداة الشرط (إذا):**

وهي ظرفٌ لما يستقبل من الزمان، تتضمّن معنى الشرط، وتأتي ظرفاً محضاً من غير أنْ تفيد الشرط، فالظرفيّة ملازمة لها سواءٌ أفادت الشرط أم لا، يقول المراديّ:"كثُر مجيء الماضي بعدها مراداً به الاستقبال"[٣٤]، وقد زعم الفرّاء أنّها إذا كانت بمعنى الشرط فلا يكون بعدها إلاّ الماضي"[٣٥].

وقد أدّت مع فعلها الماضي في الخطاب القرآنيّ الشيء ذاته، ففي قوله تعالى:﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِـرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾(الإسراء: ١٠٤)، أدّى الفعل الماضي مع الأداة (إذا) معنى مهمّاً في سياق الحديث عن يوم الآخرة؛ إذ يحمل في طيّاته تهديداً ووعيداً لبني إسرائيل، ويؤكّد ذلك جواب الشرط الماضي (جئنا)، المقترن بضمير الخطاب، ليكون الكلام مباشراً [٣٦]، والأمر ذاته في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(الإسراء:٥).

فلمّا أراد الله تذكيرهم بما ينتظرهم من سوء العاقبة، مثبتاً بذلك ما سيسلّطه عليهم في المرة الآخرى من جبابرة ذوي قوة وبطش شديد [٣٧]، بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة[٣٨].

ج. الماضي المؤكّد:

يعدّ الفعل الماضي_ في أصل وضعه _ من أكثر الأفعال تأكيداً؛ وذلك لأنّه يدلّ على زمان انقضى، فالفعل كائنٌ وتامّ، والجهة فيه ثابتة، والحدث قد حصل، ومع ذلك فقد يُراد بالماضي الزيادة في التأكيد، والإثبات بالفاعل، ومن ذلك مجيئه مسبوقاً بالحرف (قد)، التي تأتي لتفيد معاني ثلاثة، وهي: التحقيق والتوقع والتقريب،

---

(٣٣) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، ص ٨٥٦.

(٣٤) المراديّ، المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص ٣٦٧.

(٣٥) ابن يعيش، شرح المفصّل ٩٦/٤.

(٣٦) سيد قطب، تفسير في ظلال القرآن ٢٢٥٣.

(٣٧) الصابونيّ، صفوة التفاسير، ١/ ١٤١.

(٣٨) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٢١٤

والتحقيق وهو المعنى الأول الملاصق لها، وقد قصد النحويون بالتحقيق معنى التأكيد؛ ذلك لأنّ معنى التحقيق بحصول الفعل قائمٌ أصلاً بصيغة الفعل، التي هي صيغة (فَعَل) وإنّما جاءت (قد)لتؤكّد هذا المعنى(٣٩).

وقد جاء هذا المعنى ماثلاً في آيات الذكر الحكيم، التي خاطب بها الله _تعالى_ بني إسرائيل، ففي قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾(البقرة: ٦٥)، أراد الله تعالى تأكيد عِلم بني إسرائيل فقد أكّد الماضي بـ(اللام) و (قد)، لأنّ مثل هذه القصّة يمكن أن يبهتوا في إنكارها؛ وذلك لما نال في عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قِردة، فاحتيج في ذلك إلى توكيد وأنّهم علموا تلك الحقيقة(٤٠)، وفي موضع آخر﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾(البقرة: ٩٢)، جاء الخطاب بالفعل الماضي (جاء) مؤكّداً بالأداة (لقد)، ولعلّ سياق الحال يكفينا مؤونة الشرح؛ فقد كانت معجزات نبيّ الله موسى التسع، الدالّة على صدق نبوّته واضحة صريحة، بما لا يحتمل الشكّ أو التكذيب، ومع ذلك جِيء بالفعل المؤكّد ليوضّح جسامة فعلهم اللاحق، وهو اتّخاذهم العجل من دون الله، فكأنّما أراد العزيز الحكيم أنْ يوضّح تركيبة النفس اليهوديّة ومكنوناتها، التي هي من أغرب المخلوقات، فبعد أنْ يروا بأبصارهم ويعاينوا تلك المعجزات يكفرون، فأيّ إلحاد وجحود بعد هذا؟

وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾(البقرة: ٨٧)، نجد التوكيد بالأداة (لقد) وبعدها الفعل الماضي (آتينا) لتأكيد ما جاء به نبيّهم موسى وهي التوراة، وهي التي حرّفوها فيما بعد، ونجد الماضي (جاء) مؤكّداً بـ(قد) مرّتين في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾(المائدة: ١٥)﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(المائدة: ١٩)، مخاطباً أهل الكتاب _ اليهود والنصارى _ مؤكّداً ما جاء به نبيّه محمد_ صلّى الله عليه وسلّم _ ولعلّ توكيد الفعل الماضي يفضح ويكشف ما كان يخفيه أهل الكتاب ممّن كانوا معاصرين لسيّدنا محمد _ صلّى الله عليه وسلّم _(٤١)، وكذلك كان تأكيد الفعل الماضي(أنجى) في قوله تعالى:﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾(طه: ٨٠)، إذ دلّ تأكيد الفعل وتكراره في غيرما موضع على أهميّة هذا الفعل، الذي تناسوه وهو أصل بقائهم واستمرارهم، فلولا الإنجاء ما كانوا وقتئذ يستمعون إلى آخر الأنبياء.

د. بعد الظرف حيث:

(حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ، ملازم الإضافة إلى الجملة، اسميّة كانت أو فعليّة (٤٢)، وقد أفاد الماضي بعد الظرف (حيث) في قوله تعالى:﴿ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾(الأعراف: ١٦١) الإباحة والسعة في التصرّف في المكان وصنوف الطعام، وهي نِعم تُضاف إلى نِعم الله السابقة على بني إسرائيل، فلم يكفهم الله أنْ نجّاهم ومنحهم نعمه إلّا انّه بسط لهم في الاختيار.

---

(٣٩) انظر ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي عبدالله، راجعه سعيد الأفغانيّ، طبعة ٣، دار الفكر، ١٩٧٢ م، ص ٢٢٦.

(٤٠) انظر أبو حيّان الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط، ١ / ٤٠٨ و٤٧٥.

(٤١) انظر الصابونيّ، تفسير صفوة التفاسير ١/ ٣٠٩.

(٤٢) انظر ابن يعيش، شرح المفصّل ٣/ ١١٤_١١٥، وانظر السيوطيّ، همع الهوامع ٢ / ١٥٤.

هـ. جملة الصلة الماضويّة:

الأسماء الموصولة بنوعيها _ الخاص والمشترك _ مبهمة المعنى، ناقصة الدلالة، لا يتّضح معناها إلّا إذا وُصِلت بالصلة [٤٣]؛ فهي مفتقرة إلى تلك الصلة، وقد أورد لها النّحاة عدّة شروط، يجب أن تتحقّق فيها، منها: أن تكون خبريّة، لفظاً ومعنىً، وأن يكون معناها مفهوماً للمخاطب _ أي معلومة لديه، إذإنّ فائدة الصلة هي رفع الإبهام من الموصول وتوضيحه للمخاطب [٤٤].

وجملة الصلّة أطلق عليها سيبويه مرّة (الحشو)، ومرّة عبّر عنها بـ (الصلة)[٤٥]، وقد جاءت صلة الموصول أفعالاً ماضية في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل في غير ما موضع، يُمكن لنا أنْ نستخلصها لتبيان دلالة الفعل الماضي المقصودة وتوضيح الأثر الزمنيّ على الاسم الموصول، لقد وردت عدة أسماء موصولة، ولكلٍّ دلالته، التي تختلف وفق سياق الخطاب.

- **الاسم الموصول (ما):**

يدلّ في أصل وضعه على غير العاقل، يستوي فيها التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع[٤٦]، فقد أدّى مع صلته دوراً مهمّاً في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل في بيان الرسالة، التي أنزلت عليهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ٦٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾(البقرة: ٩٣)، إذ تؤكّد صلة الموصول في الآيتين السابقتين أهميّة الكتاب، الذي أُنزل على بني إسرائيل، وتؤكد أيضاً ردة فعلهم إزاءه وتكذيبهم به وإنكارهم له وكفرهم به، وفي هذا المقام نجد أنّ الغاية الأسمى في الخطاب هي للكتاب السماويّ المنزَل، لا للمخاطَبين بني إسرائيل؛ إذ إنّ جملة الموصول الماضويّة جعلت الفكر ينصرف للكتاب المنزل، وتجدر الإشارة _هنا _ إلى تشابه الآيتين السابقتين في الموصول وصلته، إلّا أنّ الخطاب قد اختلف، فقد جاءت الجملتان متبوعتين بشبه الجملة (بقوة) إلّا أنهما اختلفتا فيما يليهما من فعل الأمر التالي لكلّ منهما، فقد تبع الأولى الفعل (اذكروا)، أما الثانية فقد تُليت بالفعل (اسمعوا)، والسياق هو الفيصل في الآيتين، فقد جاءت الأولى في مقام عام، غايته ذِكر وسرد لما قد منح الله بني إسرائيل، أمّا في الثانية، فقد بان ضلالهم باتخاذهم العجل، وتظهر مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ إيتاء موسى الكتاب هو نعمة لهم؛ إذ فيه أحكامهم وشرائعهم، ثم قابلوا تلك النعمة بالكفران[٤٧].

---

(٤٣) انظر الجرجانيّ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت٨١ هـ)، المقتصد في شرح الإيضاح، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ٢٣٧، وانظر محمّد إبراهيم عبادة، الجملة العربيّة (دراسة لغويّة نحويّة)، منشأة المعارف، الأسكندريّة، ص١١٨.

(٤٤) انظر ابن هشام الأنصاريّ، أبو محمد جمال الدين (ت٧٦١ هـ)، أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعيّ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج١ / ص١٤٣، وانظر أبو العرفان محمد بن علي الصبّان الشافعيّ (ت ١٢٠٦ هـ)، حاشية الصبّان على شرح الأشمونيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ م، ص٢٥٤.

(٤٥) انظر سيبويه، الكتاب، ٢ / ١٠٥و١٠٧.

(٤٦) انظر الزركشيّ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر المصريّ (ت ٧٩٤ هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، البابي الحلبيّ ط١، ١٩٧٥م، ج٤، ص٣٩٨، وانظر محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت ١٤٠٣هـ)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعيّة، دار ابن كثير، حمص، سورية، ١٤١٥ هـ، ١٠/ ٨٩.

(٤٧) أبو حيّان الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ١/ ٤٦٦.

وقد أدّت صلة الموصول _ الفعل المضارع المسبوق بالناسخ (كان) _ في الخطاب القرآنيّ لأهل الكتاب، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾(المائدة: ١٥)، أدّت المعنى الذي أراده التنزيل الحكيم لبيان تزييف أهل الكتاب، وتجدر الإشارة _ هنا _ إلى أنّ الصيغ الصرفيّة للأفعال ليست مطّردة؛ فقد تدلّ الصيغ الماضية على الزمن الحالي، وقد تدلّ الأفعال المضارعة على الزمن الماضي، ولا يتأتّى ذلك بمعزل عن السياق اللغويّ الملازم للصيغة والمقام الذي أُطلقت فيه الصيغة، ومن دلالة المضارع على الماضي ما يكون فيه المضارع مسبوقاً بـ (كان)، إذ يدلّ على الزمن المستمر، أيْ أنّ الحدث استمرّ في الزمن الماضي، فالماضي جاء من (كان) والاستمرار من (يفعل)، وفي ذلك أيضاً دلالة عميقة، وهي أنّ الفعل وقع في الزمن الماضي، ولكنه لم يقع مرّة واحدةً بل استمرّ مدّة من الزمن[٤٨]، وهذا ينطبق على الفعل في الآية السابقة، ففعل الإخفاء الذي كان يفعله أهل الكتاب استمرّ فترة طويلة منذ مجيء رسلهم بالكتب إلى زمن نبوة محمّد _ صلى الله عليه وسلّم–

وهنالك اسم موصول آخر جاء في خطاب الله إلى بني إسرائيل:﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(البقرة: ١٢٢)، وهو (التي)، وهو اسم موصول دالّ، وليس كـ (ما) الموصول المبهم، فلّما أراد الله من بني إسرائيل أن يذكروا أمراً محدّداً، وهو تفضيله إيّاهم على العالمين، جيء بالموصول (التي)، الذي أدّى مع صلته الماضويّة المعنى المراد.

و. الزيادة الصرفيّة:

النظام الصرفيّ للغة العربيّة يتكوّن من نقطتين أساسيتين أولهما: المعاني الصرفيّة التي تحملها الصيغ المختلفة في اللغة العربيّة، المتأتّية من زوائد البنى فيها كالمطاوعة والكثرة والتعدية ...إلخ، وثانيهما المباني الصرفيّة المتعلّقة بالزوائد والأدوات المختلفة، وتبرز العلاقة بينهما في كون المباني الصرفيّة تنتج معاني صرفيّة وظيفيّة وتندرج تحت هذه المباني معاني معينة، مانحة المبنى الصرفيّ معنى واضحاً"[٤٩].

وغاية الصرف لا تتوقف عند حدود وصف بنية الكلمة فقط، بل تتعدّى ذلك إلى خدمة الجمل والعبارات، فهيكل الكلمة هو الذي يوصلنا للفهم الصحيح للجملة، فكثير من مسائل النحو لا يمكن فهمها إلّا بعد دراسة الصرف، إذ يشكّل مقدمةً ضروريّة لدراسة النحو [٥٠].

أدّت الزيادات الصرفيّة في الأفعال الماضية لاحقة الذكر عدّة معانٍ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾(البقرة: ٥٧)، جاء الفعل الماضي (ظلّلنا) لإفادة معنى المبالغة، فقد سترهم الله بالسّحاب من حرّ الشمس وجعله عليهم كالظلّة[٥١]، وقد أفادت الزيادة في الفعل الماضي (أنزلنا) التعدية، وبيان سهولة تحقيق الطعام، أيْ أنّ الله تعالى أنعم عليهم بأنواع من الطعام والشراب من غير كدّ

---

(٤٨) انظر كمال رشيد، الزمن النحويّ ٢٤٤.

(٤٩) تمّام حسّان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣، ص ٨٢.

(٥٠) انظر فيروز بن سالم، الدلالة الصرفيّة في الخطاب القرآنيّ (سورة يس أنموذجاً)، رسالة ماجستير جامعة الشهيد حمد لخضر، الجزائر،١٤٣٦هـ، ٢٠١٥ م، ص ١٤.

(٥١) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٥٤، وأبو حيّان، تفسير البحر المحيط ١ / ٣٧٥.

ولاتعب، ولايخفى أهميّة إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم؛ فهو إشارة واضحة بأنّ الله قد حباهم وميّزهم وأغدق عليهم تكريماً.

- **الفعلان (أنجى) و (نجّى)**

وفي موضع آخر نجد الزيادة على الفعل الماضي أفادت دلالات أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾(البقرة: ٤٩)،و﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَـوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾(الأعراف: ١٤١)، و﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَـنَ ﴾(طه: ٨٠)، فقد أدّى الفعل (أنجى) الإسراع في حدوث الفعل، ومن لطيف القول: إنّ هنالك فرقاً بلاغيّاً بين الفعلين (نجّى) و(أنجى)، فقد أشار إلى ذلك فاضل السامرائيّ في باب الفرق بين (فعّل) و (أفعل)، يقول: " ومنه استعمال (نجّى) و(أنجى) فإنّ الملاحظ أنّ القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجّى) للتلبّث والتمهّل في النتيجة، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإنّ (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص من الشدة والكرب"(٥٢)، ويمكن لنا أنْ نلحظ فرقاً آخر بينهما، فالإنجاء يكون قبل وقوع العذاب أو المكروه، والتنجية تكون من العذاب والمكروه الواقع، ومن المعاني الأخرى للزيادات الصرفيّة ما جاء في الفعل (واعد)، المزيد بالألف لإفادة المشاركة في قوله تعالى:﴿ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَـنَّ وَٱلسَّـلْوَىٰ﴾(طه: ٨٠)، وتظهر الفائدة في البناء الجديد، وهي إعلاء الله لمكانة بني إسرائيل والرفع من شأنهم، وذكر الزمخشريّ:" وإنّما عَدّى المواعدة إليهم لأنّها لابستهم واتّصلت بهم حيث كانت لنبيّهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه"(٥٣).

ز. **المضارع الذي يفيد معنى الماضي:**

إنّ تعيين ملامح الزمن في العربيّة بحاجة إلى فحص البنية المسمّاة بالصيغة الزمنيّة وما تشتمل عليه من دلالات، ومن ثم فحص الزمن النحويّ بمراقبة الصيغ في الاستعمال وثبوته الدلاليّ أو تغيّره من الوجهة الصرفيّة (٥٤).

لقد تمت الإشارة _ فيما سبق _ إلى أنّ الصيغ الصرفيّة للأفعال ليست مطّردة؛ فقد تدلّ الصيغ الماضية على الزمن الحالي، وقد تدلّ الأفعال المضارعة على الزمن الماضي، ولا يتأتّى ذلك بمعزل عن السياق اللغويّ الملازم للصيغة والمقام الذي أُطلقت فيه الصيغة، ومن أمثلة ذلك: إذا تبع الفعل المضارع (إذ) فهو بمعنى الماضي نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾(الأنفال: ٣٠)، وغالباً ما يُراد بالمضارع بعدها حكاية الحال الماضية، نحو قوله تعالى:﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾(الأنفال: ١٢)، والسبب في ذلك هو (إذ)، فأصل وضعها أن تكون ظرفاً للوقت الماضي(٥٥).

ومن دلالة المضارع على الماضي ما يكون فيه المضارع مسبوقاً بـ(كان)، إذ يدلّ على الزمن المستمر، أي أنّ الحدث استمرّ في الزمن الماضي، فالماضي جاء من (كان) والاستمرار من (يفعل)، وفي ذلك أيضاً

---

(٥٢) فاضل صالح السامرائيّ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ، ص ٦٢ – ٧٦.

(٥٣) الزمخشريّ، الكشاف ١ / ٨٠.

(٥٤) انظر مالك المطلبيّ، الزمن واللغة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص٤٤و٤٥.

(٥٥) انظر السيوطيّ، الأشباه والنظائر ١/ ٢٠٤.

دلالة عميقة، وهي أنّ الفعل وقع في الزمن الماضي، ولكنّه لم يقع مرّة واحدةً، بل استمرّ مدّة من الزمن[٥٦]،ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾(البقرة: ٥٧)، إذْ إنّ المضارع (يظلمون)، الذي سبق بـ (كان) قد أفاد معنى الحدث الواقع في الماضي ولا يزال مستمرّاً، وهو أنّ بني إسرائيل مستمرون في ظلمهم لنفسهم بكفرهم. والأمر ذاته في قوله تعالى:﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾(البقرة: ٧٢)، فقد أفاد الفعل المضارع (تكتمون) المسبوق بالناسخ (كان)، تجسيد الحالة النفسيّة التي كان يعيشها بنو إسرائيل بكتمهم خبر القتل، ليخشوا أمر الله.

والأمر ذاته ينطبق على الفعل المضارع (تخفون) المسبوق بالناسخ (كان) في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾(المائدة: ١٥)، فالإخفاء الذي كان يفعله أهل الكتاب لكتبهم استمرّ فترة طويلة منذ مجيء رسلهم بالكتب إلى زمن نبوة محمّد _ صلى الله عليه وسلّم _ وهذا يؤشر إلى عظيم الحقد الذي كان بنو إسرائيل يحملونه في أنفسهم لنبي آخر الزمان محمّد _ صلى الله عليه وسلّم _ ولأتباعه حتى قيام الساعة.

نلحظ ممّا سبق القيمة التي أدّاها الفعل المضارع المسبوق بالناسخ (كان)، فقد دلّت على ما كان عليه بنو إسرائيل من صفات وأفعال، وما يمكن أن يستمر منها، وهي _ في جلّها _ صفات سلبيّة ملازمة لهم، لا يتركونها، وهي: الاعتداء والكفر وعدم الإيمان والاستضعاف والذلة، وظلم النفس، والفسق، واختلافهم في كثير من أمورهم.

ح. الماضي بعد (ثمّ):

(ثمّ) حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب والمهلة [٥٧]، وأضاف الاستراباذيّ أنّها قد تأتي لمجرد الترتيب في الذكر، والتدرّج في الارتقاء [٥٨]، ومن لطيف القول ما قاله سيبويه في تفريقه بين ثمّ والفاء، ونصّه: "ومن ذلك قولك: مررتُ بزيدٍ فعمرو، ومررتُ برجل فامرأة، فالفاء أشركت بينهما في المرور، وجعلت الأول مبدوءاً به، ومن ذلك: مررتُ برجلٍ ثم امرأة، فالمرور ههنا مروران، وجعلت (ثمّ) الأول مبدوءاً به وأشركت بينهما في الجرّ"[٥٩].

إنّ الدارس للخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل يلحظ ورود حرف العطف (ثّم)، وقد ألقى هذا الحرف ظلاله على الأفعال المتتالية فيترك مساحات زمانيّة في بنية السرد، وقد أدّى الفعل الماضي بمعيّة (ثم) العاطفة معاني ودلالات متنوعة، ففي الآيات التالية سنجد لوحة زمانيّة حركيّة، ففي قوله تعالى:﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ

---

(٥٦) انظر كمال رشيد، الزمن النحويّ ٢٤٤.

(٥٧) انظر الزجّاج، إعراب القرآن، تحقيق ودراسة إبراهيم الأبياريّ، دار الكتب الإسلاميّة، ط٢، ١٩٨٢م، ١/ ١٠٥، وابن هشام الأنصاريّ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ١٥٩.

(٥٨) الاستراباذيّ، رضي الدين، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق إميل يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ٤/ ٤١٤، ٤٩٣

(٥٩) سيبويه، الكتاب ١ /٤٢٩.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(البقرة: ٥٦)، فقد بعثهم الله بعد أنْ أماتهم، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون (٦٠).

وفي قوله تعالى﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾(البقرة: ٦٤) هنا جاء الإيقاع السرديّ في تعداد نِعم الله على بني إسرائيل، فبعد أخذه ميثاقهم باتّباع أحكام التوراة، ورفعه الجبل، بعد كلّ هذه الهدنة النفسيّة جاء العاطف (ثمّ) متبوعاً بالفعل الماضي (تولّى) مسنداً لبني إسرائيل، ليبيّن حقيقة بني إسرائيل من إعراضٍ عن الحق وازورار عن الجادّة(٦١)، وفي قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ (البقرة: ٧٤) جاءت (ثمّ) العاطفة متبوعةً بالفعل الماضي (قست)، مسنداً إلى (قلوب)، المضافة لضمير الخطاب الجمعيّ (كم)، بعد الحديث المفصّل لقصّة البقرة، وكيفيّة التعامل مع بني إسرائيل، جاءت ثمّ لتبيّن الفجوة الحسيّة لدى بني إسرائيل، فبدلاً من أنْ ترقّ قلوبهم وتلين لما كان في قصّة البقرة من عبرة، ازدادت قساوةً، وازدادوا عناداً وتجبّراً.

ومن المواضع الأخرى التي جاء فيها الفعل الماضي مسبوقاً بالعاطف (ثمّ) قوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(البقرة: و٥١ و ٩٢)، فقد كشفت (ثمّ) والفعل الواقع بعدها معنى التراخي والفتور العقدّي لدى بني إسرائيل باتّخاذهم العِجل إلهاً وكفرهم وتكذيبهم برسالة موسى، وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾(الإسراء: ٦) إذ يظهر معنى التراخي من خلال المدّة الزمنيّة بين الحدثين(العُلويّين)، يقول سيّد قطب في تفسير هذه الآية:" وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لم تُذكر في القرآن إلّا في هذه السورة، وهي تتضمّن نهاية بني إسرائيل، التي صاروا إليها؛ ودالت دولتهم بها، وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم، وفشوّ الفساد فيها"(٦٢).

ط. المصدر المؤول:

إنّ تأويلنا للمصدر المؤول بالمصدر الصريح وبيان موضعه الإعرابيّ يحول دون الوقوف على القيمة الدلاليّة التي حقّقها مجيء المصدر مؤولاً؛ فهناك فرقٌ واضحٌ جليٌّ، إذ إنّ التعبير بالمصدر صريحاً يدلّ على الحدث مجرّداً، وليس في صيغته ما يدلّ على مضيّ ولا استقبال، فجيء بلفظ الفعل المشتق منه مع الحرف المصدريّ ليجتمع الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزمن، فالمصدر الصريح تكون بؤرة التركيز فيه على جنس الفعل المجرّد (الحدث)، لا على الزمن أو منْ يقوم بهذا الفعل، وإذا كان المصدر الصريح كلمةً مفردةً لفظاً ومعنىً، فإنّ المصدر المؤول جملة أوقعها الحرف المصدريّ في مواقع الكلمات المفردة، غير أنّ بعضاً من تلك المواقع لا تكفيه اللفظة المفردة، بل يحتاج إلى ركن إسناديّ كامل، يقول عبد القاهر الجرجانيّ:" إذا قلت:علمتُ زيداً منطلقاً، جرى في صلتها ذكر الحديث والمحدَّث عنه، فتصير كأنّك قلت: علمتُ زيداً منطلقاً، وهذا كلام قد يُغلّط منْ ينظر إلى ظاهره، فيتوهّم أنّهم جعلوا (أنْ) في حكم اللغو مثلاً ...."(٦٣)، وقد ورد المصدر المؤول في الخطاب القرآني لبني إسرائيل في قوله تعالى:﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ

---

(٦٠) الزمخشريّ، الكشاف ١ / ٥٢.

(٦١) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٥٦.

(٦٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص ٢٢١٢.

(٦٣) الجرجانيّ، كتاب المقتصد ١/ ٤٧٨ . ٤٧٩.

عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(البقرة: ١٢٢) أدّى المصدر المؤول في الآية الكريمة السابقة الدلالة الزمنيّة ودلالة الفاعل لفعل قد وقع، وأراد الله أن يعرف الملأ فاعله، فلو جاء المصدر السابق صريحاً لدلّ على الحدث دون الزمن.

ي. الفعل (اتّخذ) ودلالاته:

يلحظ الدارس للخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل تكرار الفعل (اتّخذ)، والمعنى العام لهذا الفعل هو(الأخذ)، ويقترب من معنى (الجَعْل)، وهو فعل متعدّ إلى مفعولين، يتّخذه الصرفيّون مثالاً للدلالة على صيغة (افتعل)، وقد أصبح الفعل معنىً بذاته، وهو الاتّخاذ، ويحمل _ في أكثر الأحايين _ معنى سلبيّاً، لاسيّما إذا تعلق الأمر بالناحية العقديّة، وقد ورد في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل، يبيّن ما آلت إليه عقيدتهم، وما اتّخذوه من معبودات مستحدثة، وقد بان ذلك في عبادتهم العجل نحو قوله تعالى:﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾(البقرة: ٥١و ٩٢).و﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾(النساء: ١٥٣).و﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلَا ﴾(الأعراف: ١٤٨).و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾(الأعراف: ١٥٢)، فقد ظهر في مواضع عديدة تعلّقهم بالعجل واتّخاذه إلهاً من دون الله، واتّخذوا الرهبان أرباباً من دون الله(٦٤)، وفي المقابل أكّد سبحانه وتعالى موقفهم من آيات الله، التي اتخذوها هزواً، ويكفي ذلك دليلاً وبرهاناً على كشف زيف عقيدتهم وتكذيبهم للأنبياء والرسل والرسالات(٦٥).

نلحظ في نهاية هذا الاتجاه من الخطاب شيوع الفعل الماضي وتنوّع هيئاته؛ فقد جاء في سياقات لغويّة عديدة، مفيداً بمعناه العام . المتضمن انقضاء الزمن، ما يكسب الخطاب معاني عديدة، فقد جاء الماضي في هذا الاتجاه بعد (إذ) وفي أسلوب الشرط، ومؤكّداً، وجملة صلة، وبعد الظرف (حيث)، وجاء مزيداً لتأدية معاني لا يمكن للمجرد منه تأديتها، وقد أدّى المضارع في هذا الاتجاه معنى المضيّ، وجاء مصدراً مؤولاً وغيرها.

ويمكننا هنا الخلوص إلى أنّ هذا الاتجاه هو أغنى اتجاهات الخطاب، التي أفادت من الفعل الماضي واتّخذته ركيزة أولى؛ ولعلّ سبب ذلك مردّه أمران: أولهما: أنّ بني إسرائيل أكثر الأمم ذكراً في القرآن الكريم، فقصصهم مع أنبيائهم كثيرة، والكفر والعناد والجحود كانت صفات ملازمة لهم، وثانيهما: أنّ الخطاب القرآنيّ من الله إلى بني إسرائيل أراد الله به ذكر حكايات بني إسرائيل، تسليةً عن نبيّه محمد_ صلّى الله عليه وسلّم_، وهو في الوقت ذاته رسالة صريحة للمسلمين في كلّ أزمانهم، ليقفوا على حقيقة بني إسرائيل، فيأخذوا حذرهم.

ثانياً: الخطاب من بني إسرائيل إلى الله سبحانه وتعالى:

في هذا الاتجاه من الخطاب لم يظهر الفعل الماضي كثيراً، فقد جاء في مواضع محدودة و في استعمالات خاصّة، ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾(البقرة: ٩١) فقد ورد الفعل الماضي المبني للمجهول في صلة الموصول مرتين: الأولى في قوله تعالى: (بما أنزل الله) وحمل الماضي معنى الإطلاق لكل الكتب السماويّة، إذ إنّهم رفضوا أنْ يؤمنوا بالكتب السماويّة، والثانية في قوله تعالى على حكايتهم:(بما أُنزل علينا)، تؤكّد ادّعاءهم أنّهم سيؤمنون بما خصّهم الله به وأنزله عليهم، وهو التوراة دون سواه من الكتب السماويّة الأخرى، والآية السابقة على هذه تؤكّد زيف دعواهم، فقد أكّدت كفرهم وعدم إيمانهم بمحمد وقبله عيسى _ عليهما السلام _(٦٦).

---

(٦٤) سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص ٢٢١٢.

(٦٥) انظر الزمخشريّ، تفسير الكشاف ٢ / ١٥١ والأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٦ / ١٥٦.

(٦٦) انظر الزمخشريّ، الكشاف ١ / ١٩١، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ /٦٨.

ونجد الماضي في موضع آخر في قوله تعالى:﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(يونس: ٨٥)، قد جاء الماضي بعد شبه الجملة، فقد تقدمت شبه الجملة(على الله) على الفعل الماضي (توكّلنا)، ويكشف ذلك التقديم عن شدة إيمان هذه الثلّة من بني إسرائيل، وهم نفرٌ قليل من أولاد بني إسرائيل، قال مجاهد: " هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات عنهم آباؤهم"(٦٧)، والآية السابقة على هذه الآية تبيّن السياق الذي قِيلَ فيه الفعل الماضي وشبه الجملة المتقدمة عليه، فقد طلب النبي موسى من قومه أنْ يخلصوا في التوكّل، لأنّ التوكلّ لايكون مع التخليط، ويبيّن صاحب الكشّاف سبب ذلك الردّ من هؤلاء القوم من بني إسرائيل بقوله:" وإنّما قالوا ذلك لأنّ القوم كانوا مخلصين، لا جرمَ أنّ الله _سبحانه وتعالى_ قَبِل توكّلهم، وأجاب دعاءهم، ونجّاهم، وأهلك منْ كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه"(٦٨).

ثالثاً: الخطاب من الله سبحانه وتعالى إلى نبيّه موسى عليه السّلام.

سيدرس هذا الاتجاه من الخطاب الفعل الماضي ودلالته وما يمكن لنا من خلاله تفسير القيمة التي أضفاها مجيء الفعل الماضي في السياقات اللغويّة والمقاميّة المتعدّدة، ومن ذلك ما يلي:

أ. الماضي بعد (إذ):

قد أدّى الفعل الماضي(واعد) بعد (إذ) في هذا الاتجاه من الخطاب معنى المشاركة المتأتّية من الزيادة الصرفيّة (٦٩)، إذ تشي بالقرب الربانيّ لعبده ونبيّه موسى أمام قومه، فهو أحوج ما يكون للأُنس والرأفة بعدما كفر قومه، وكذّبوه باتّخاذهم العجل، وهم ظالمون﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(البقرة: ٥١).

والفعل الماضي (آتينا) في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ٥٣)، فقد جاء في ثنايا خطاب الله لبني إسرائيل وتبيان ما جاء به موسى من التوراة، وفي هذا الشكل من الخطاب، الذي يُتحدّث فيه بضمير الغائب أمام حاضر، فهو ثناءٌ وتكريمٌ لمن كان غائباً، والغيبة هنا معنويّة، فنبيّهم موسى بينهم حاضرٌ، ولكنّه برآء ممّا اتّخذوه من دون الله إلهاً وممّا تركوه من التوراة.

ب. أسلوب الشرط:

جاء الشرط في هذا الاتجاه من الخطاب بالأداة (لمّا)، وهي المتعلقة بالزمان، وقد جاءت هنا مع فعلها الماضي (جاء) في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف: ١٤٣) لتؤدّي معنى الانقياد والطاعة من نبيّ الله موسى لما يأمره به ربّه، وتجلّت روعة الطاعة في الآية ذاتها في فعل الشرط الماضي(أفاق) وجوابه مقول القول (سبحانك)، متلوّةً بالفعل الماضي (تبتُ)، الفعل المجرّد من التوكيد، وهذه قمّة الإيمان اليقينيّ من موسى لربّه أمام قومه، المنكرين والمكذّبين به وبما جاء به من بيّنات.

---

(٦٧) الصابونيّ، صفوة التفاسير / ٥٥٣.

(٦٨) انظر الزمخشريّ، الكشاف ٢ /٣٤٦.

(٦٩) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١/ ٥٠، وانظر الزمخشريّ، تفسير الكشاف ١/ ١٦٧.

ج. التوكيد:

لقد جاء التوكيد للفعل الماضي في هذا الاتجاه من الخطاب بالمصدر التالي لفعله أي (المفعول المطلق)، ففي قوله تعالى مخاطباً نبيّه موسى:﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾(طه: ٤٠)، أكّد المصدر (فتوناً) فعله الماضي (فتنّاك)، فتكوّن تركيب التأكيد من (الفعل الماضي+ إسناده إلى ضمير الجلالة المفخّم(نا) + المصدر المطلق)، ولعلّ الغاية من ذلك التوكيد هي تأكيد حدوث الفعل لغرابته، فقد يتساءلال السائل: أيعقلُ أنْ يبتلي الله نبيّه وكليمه موسى بهذه الابتلاءات؟ نعم، فقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي أوردت حادثة القتل، فامتحنه الله بالخوف والهرب من القصاص، فتحرّج بها ضميره وتأثّم من اندفاعه، وتلتها الآيات التي تحدّثت عن قصة موسى في مدين، وامتحانه بالغربة ومفارقة الأهل، إنّنا إذا ما استعرضنا السياق العام للسورة نجدها قد عرضت لقصص الأنبياء، تسليةً لرسول الله محمد _ صلّى الله عليه وسلّم _ وطمأنةً لقلبه الشريف، فذكرت بالتفصيل قصّة موسى وهارون مع فرعون الطاغية، وموقف المناجاة بين موسى وربّه، وموقف تكليفه بالرسالة، وموقف الجدال بين موسى وفرعون، وتتجلّى في ثنايا تلك القصص رعاية الله لنبيّه وكليمه، إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا، ونجّاه من الغمّ، وأهلك أعداءه الكَفَرة(٧٠).

وقد اتّخذ التوكيد في هذا الاتجاه من الخطاب شكلاً آخر، يتمثّل بالتوكيد بالناسخ (إنّ) وبعدها الماضي المسبوق بـ(قد)، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾(طه: ٨٥)، فكان تركيب جملة التأكيد كما يلي:(إنّ+ ضمير لفظ الجلالة المفخّم + قد + فتنّا (فعل ماضٍ) مؤكّد بأصل الوضع + الإسناد إلى ضمير لفظ الجلالة المفخّم)، وذلك لبيان شدّة الابتلاء، الذي أوقعه الله بقوم موسى بعد أنْ تركهم نبيّهم، فأوقعهم السامريّ بالضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل.

د. (ثمّ) العاطفة:

أدّى الفعل الماضي (جئتَ) المسبوق بـ(ثمّ) العاطفة، في قوله تعالى:﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾(طه: ٤٠) معنى التباعد الزمنيّ، وهي المدّة التي أرادها الله لنبيّه، وشاءتها أقداره، وإنّما أراد الله بذلك تسليةً عن قلب سيّدنا محمّد_ صلّى الله عليه وسلّم_، وفي الوقت ذاته أراد الله أنْ يضرب مثلاً لعباده في الصبر والشكر على صنوف الابتلاء.

هـ. الجملة الخبريّة:

لقد أدّى الفعل الماضي (اخترتك) في قوله تعالى:﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾(طه: ١٣)، وظيفة إسناديّة، ذات دلالة عظيمة، فتركيب الجملة الاسميّة (المبتدأ (أنا) + الخبر جملة فعليّة (اخترتك)، فعلها ماضٍ مسند إلى ضمير المتكلّم المعظّم، فأيّ تكريم بعد هذا؟ لقد ذهب موسى يطلب قبساً من النار، ويطلب هادياً في السّرى، ولكنّه وجد المفاجأة الكبرى، إنّها النار التي تدفّىء لا الأجسام ولكن الأرواح، النار التي لا تهدي في السّرى، بل في الرحلة الكبرى (٧١).

---

(٧٠) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ /٢٠٩، وانظر سيّد قطب، في ظلال القرآن ٢٣٣٥.

(٧١) انظر سيّد قطب، في ظلال القرآن ٢٣٣٠.

و. الصيغة الصرفيّة:

أدّت الصيغة الصرفيّة في هذا الاتجاه من الخطاب دلالات عديدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾(طه: ٤٠)، فقد أدّى الفعل الماضي (نجّى) المزيد بالتضعيف، أدّى معنى الخلوص، الذي أراده الله لنبيّه موسى، وتجدر الإشارة – هنا – إلى أنّ الإنجاء هو من أعظم النّعم؛ فهو هِبة الحياة وأصل الوجود، أدّى الفعل (أنجى) _المزيد بالهمزة_ في قوله تعالى:﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾(الشعراء: ٦٥)، أدّى معنىً جليلاً، يتناغم مع الصورة الحركيّة لمشهد الغرق؛ فقد تحوّلت دلالة الفعل _وهي التعدية_ من مجرد زيادة في أصل المبنى لتؤدّي معنىً جديداً وهو السرعة للتخليص والنجاة من الغرق، وتجدر الإشارة _ هنا _ أنّ هنالك فرقاً بلاغيّاً بين الفعلين (نجّى) و(أنجى)، فقد أشار إلى ذلك فاضل السامرائيّ في باب الفرق بين (فعّل) و (أفعل)، يقول:" ومنه استعمال (نجّى) و(أنجى)، فإنّ الملاحظ أنّ القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجّى) للتلبّث والتمهّل في النتيجة، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإنّ (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص من الشدة والكرب"[٧٢]، ويمكن لنا أنْ نلحظ فرقاً آخر بينهما، فالإنجاء يكون قبل وقوع العذاب أو المكروه، والتنجية تكون من العذاب والمكروه الواقع.

وهذا ليس من باب المنّ والتذكير بالنعمة كما جاء في الاتجاه السابق للخطاب إلى بني إسرائيل، وإنّما أراد الله بذلك إظهار ما كان يعتلج فؤاد موسى من الغم؛ لكثرة الابتلاءات التي لحقت به، فقد أورد أبو حيّان عن ابن عبّاس في تفسير هذه الآية قوله:" خلّصناك من محنة بعد محنة، ولد في عام كان يقتل فيه الولدان، وألقته أمّه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطيّاً، وآجر نفسه عشر سنين، وضلّ الطريق، وتفرّقت غنمه، في ليلة مظلمة"[٧٣]، ونجد في الآية ذاتها صيغة أخرى طالتها الزيادة الصرفيّة، وهي الماضي (فتنّاك)، التي تكمّل مع مصدرها التالي عليها مشهد الابتلاء، الذي كابده موسى، ولعلّ الغاية من ذلك يُفصح عنها السياق العام للسورة، وهو التسلية والتخفيف على سيّدنا محمّد_ صلّى الله عليه وسلّم_.

وقد أدت الزيادة الصرفيّة على الفعل الماضي (صنع) في قوله تعالى:﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه: ٤١) معنىً عظيماً، يُظهر ما كان بين موسى وربّه من مكانة، فمعنى (افتعل) هنا هو الاتّخاذ، وما ولي هذا الفعل من تكملة بشبه الجملة (لنفسي)؛ كيف لا؟ وقد جعل الله نبيّه موسى موضع الصنيعة، ومقرّ الإكمال والإحسان وأخلصه بالألطاف، وقد أورد أبو حيّان في تفسير هذه الآية:" يُقال: اصطنع فلانٌ فلاناً، اتّخذه صنيعةً، وهو افتعال من الصنع، وهو : الإحسان إلى الشخص حتى يُضاف إليه، فيُقال: هذا صنيع فلان"[٧٤]، ويقترب من ذلك قول الزمخشريّ:" هذا تمثيلٌ لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال منْ يراه الملوك بجميع خصال فيه وخصائص أهلاً لأنْ يكون أقرب منزلةً إليه وألطف محلّاً، فيصطنعه بالكرامة والأَثَرة ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر ولا يسمع إلّا بعينه وأذنه، ولا يأتمن على مكنون سرّه إلّا سواء ضميره."[٧٥]، وقد أورد الصابونيّ مثلاً في تفسيره لكلمة (اصطنع):" بأنّه شبّه ما خوّله به من القرب والاصطفاء بحال منْ يراه

---

(٧٢) فاضل صالح السامرائيّ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ، ص ٧٠ – ٧٦.

(٧٣) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٦ / ٣٢٨، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ / ٢١٥.

(٧٤) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٦ / ٢٢٩.

(٧٥) الزمخشريّ، الكشاف ٣ / ٦٦.

الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخِلال الحميدة فيصطنعه لنفسه، ويختاره لخلّته، ويصطفيه لأموره الجليلة"(٧٦).

ز. الاستفهام:

جاء الفعل الماضي (أعجلك) في هذا الاتّجاه من الخطاب في سياق الاستفهام، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾(طه: ٨٣)، خرج عن أصل وضعه، فأفاد العتاب من الله لنبيّه موسى، الذي أعجله الشوق للقاء ربّه، فلم يقوَ على تحمّل بعده، يقول الزمخشريّ في تفسير هذه الآية:" أيّ شيء عجّل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثمّ تقدّمهم شوقاً إلى كلام ربّه وتنجز ما وعد به، بناءً على اجتهاده، وظنّه أنّ ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزلّ عنه أنّه عزّ وجل ما وقت أفعاله إلّا نظراً إلى دواعي الحكمة، وعلماً بالمصالح المتعلّقة بكلّ وقت"(٧٧).

نلحظ في نهاية هذا الاتجاه من الخطاب مجيء الماضي في بعض الأساليب اللغويّة ليؤدّي معاني ذكرت في مظانها، فقد جاء الماضي بعد (إذ) الظرفيّة، وفي أسلوب الشرط، وبعد (ثمّ) العاطفة، وجاء خبراً في الجملة الاسميّة، ومؤكّداً، وجاء مزيداً غير مرّة، وقد أدّى في هذا الاتجاه أسلوب الاستفهام مع الفعل الماضي قيمة المزاوجة بين أسلوبيْ الخبر والإنشاء.

رابعاً: الخطاب من موسى عيه السّلام إلى الله سبحانه وتعالى:

في هذا الاتّجاه سنلمس التأدّب في الخطاب مع الله جلّ في علاه، ففي قوله تعالى:﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾(الأعراف: ١٥٥)، نجد الفعل الماضي قد جاء في أسلوب الشرط الامتناعي بالأداة (لو) وفعل الشرط هو الفعل الماضي(شئت) المسند إلى لفظ الجلالة ليؤكّد الأدب الجمّ في مخاطبة الأنبياء لله، فقد تمنّى موسى الهلاك لنفسه قبل رؤيته ما رأى من تبعة طلب الرؤية، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبّة(٧٨)، فكأنّما استحيا موسى من ربّه لما فعله قومه، فكان الضمير العائد في (إيّاي)، يمثّل ما كان يشعر به نبيّ الله موسى من حرج. وفي قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(الأعراف: ١٤٣).

أظهر الفعل الماضي (تاب) المسند إلى ضمير المتكلّم مع تكملة شبه الجملة (إليك) ما كان من حسن خطاب وعمق إيمان من نبيّ الله موسى مع ربّه، فبعد تنزيهه الله _سبحانه وتعالى) بقوله (سبحانك)، لمّا تبدّى له من آيات الله وعظمة قدرته، تاب توبة المؤمن عند رؤية العظائم وليست توبة عن شيء ما (٧٩)، فقد تاب موسى عمّا تجاسر به من طلب، مؤمناً بعظمة الله وجلاله.

وفي السياق ذاته في قوله تعالى:﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾(طه: ٨٤) نجد الفعل الماضي (عَجِلت) وما تلاه من تكملة يكشف ما كان ينتاب سيّدنا موسى من شعور بالأسف والندم، لما قام

---

(٧٦) الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ /٢٢٠.

(٧٧) الزمخشريّ، الكشاف ٣/ ٨١، وانظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٦/ ٣٤٨.

(٧٨) انظر الزمخشريّ، الكشاف ٢/ ١٥٥، وانظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٣٩٩/٤، والصابونيّ، صفوة التفاسير ٢/ ٤٤٤.

(٧٩) انظر الزمخشريّ، الكشاف ٢/ ١٤٨، وانظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٣٤٤/٤، والصابونيّ، صفوة التفاسير ٢/ ٤٣٥.

به من فعل العَجَلة دون قومه الذين تبعوه، فقد بيّنت الآية السابقة سبب اندفاع موسى وتعجّله للقاء ربّه، فكان مشتاقاً للرؤية الكريمة، ظانّاً في الوقت ذاته أنّه سينال بفعله رضا الله.

- **التوكيد:**

ونجد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(القصص: ١٦) الفعل الماضي(ظلمت) المؤكّد بالناسخ (إنّ) واسمه (ضمير المتكلّم) قد أكّد قيمةً عظيمةً، وهي الإقرار بالذّنب والاعتراف به، وكشف عمّا كان يشعربه موسى، ممّا فعله بقتله النفس، فوصف ما أحدث بالظلم الذي جرّه على نفسه، طالباً من الله العفو والمغفرة، ويشير السياقان: التاريخيّ والاجتماعيّ للقصّة إلى أنّ ذلك الأمر كان حدثاً مريحاً لنفوس بني إسرائيل، شافياً غيظهم، إذ كانوا فرحين بتلك الفعلة [٨٠]، غير أنّه قد جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، يمكننا هنا أنْ نلمس الفرق بين ما يفكّر به النبي وبين ما يفكّر به قومه، فقد سمّاه ظلماً للنفس؛ لأنّه قتله قبل أنْ يُؤذن في القتل، فكان ذنباً يُستغفر منه، وليس لنبيّ أنْ يقتل ما لم يُؤمر[٨١].

وفي قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾(القصص: ١٧)، جاء الأسلوب قَسَماً غير ظاهر بالباء، والتقدير (أقسم بما أنعمت عليّ من المغفرة)[٨٢]، وقد أفاد الفعل الماضي(أنعمت) المسند إلى ضمير الجلالة بعد (ما) المصدريّة الاستعطاف من موسى _عليه السلام _ إلى الله، فكأنّما أراد موسى أنْ يقول:" ربّ اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة، فلن أكون _ إن غفرت_ لي ظهيراً للمجرمين"[٨٣]، ويمكن الوقوف على القيمة الدلاليّة للمصدر المؤول، وما يختلف به عن المصدر الصريح، فتأويلنا للمصدر المؤول بالمصدر الصريح، وبيان موضعه الإعرابيّ يحول دون الوقوف على القيمة الدلاليّة التي حققها مجيئه مؤولاً؛ فبينهما فرقٌ واضحٌ جليٌّ، فالتعبير بالمصدر صريحاً يدلّ على الحدث مجرّداً من الزمان، وليس في صيغته ما يدلّ على مضيّ، ولا على استقبال، فجيء بلفظ الفعل المشتق منه مع الحرف المصدريّ ليجتمع الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزمن، ففي المصدر الصريح يكون التركيز (البؤرة) على جنس الفعل المجرّد أي (الحدث) لا على الزمن أو منْ يقوم بهذا الفعل، فالمصدر المؤول أدّى في الآية الكريمة السابقة الدلالة الزمنيّة ودلالة الفاعل لأفعال قد وقعت، فلو جاء المصدر السابق صريحاً لدلّ على الحدث دون الزمن.

وتتكرّر حالة الشعور بالذنب ثالثة في السورة ذاتها ففي قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(القصص: ٣٣)، جاء الفعل الماضي(قتل) المسند إلى ضمير موسى، جاء مؤكّداً في خبر الناسخ (إنّ) بعد أسلوب النداء من العبد الضعيف موسى إلى ربّه، ولكنّ السياق هنا يبيّن أنّ الغاية ليست الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة فحسب كما في الآيتين السابقتين، وإنّما طلب من الله أنْ يحميه ويقف إلى جانبه خوفاً من القتل، وممهّداً لطلب النصرة والعون من الله بأنْ يبعث معه أخاه هارون[٨٤].

---

(٨٠) سيّد قطب، تفسير في ظلال القرآن ٢٦٨٤.

(٨١) انظر الزمخشريّ، الكشاف ٣ /٤٠٢، وانظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٧/ ١٠٥.

(٨٢) انظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٧ / ١٠٥، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ٣ /٤٠٢.

(٨٣) انظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٧ / ١٠٥، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ٣ /٤٠٢.

(٨٤) انظر الزمخشريّ، الكشاف ٣ /٤١١، وانظر الصابونيّ، صفوة ال تفاسير ٢ / ٣٩٦.

يلحظ في هذا الاتجاه من الخطاب ندرة ورود الفعل الماضي ومحدوديّة استعمالاته؛ فقد ورد مؤكّداً وفي أسلوب الشرط، على الرغم من ندرته إلّا أنّه أدّى معاني جليلة، ولعلّ السبب في ذلك مردّه إلى طبيعة الخطاب والمخاطَب، فالماضي لا يليق بما يكون بين العبد وربّه في غالب الأحايين، وكذلك المواقف التي مرّ بها نبيّ الله موسى استدعت أفعالاً أخرى لتؤدّي معانيها.

خامساً: الخطاب من موسى وهارون عليهما السّلام إلى بني إسرائيل.

في هذا الاتجاه من الخطاب سنلمس حرص النبي وخوفه على قومه، وقد حضر الفعل الماضي في هذا الاتجاه ضمن أساليب عديدة، هي كالتالي:

أ. التوكيد:

جاء الفعل الماضي(ظلم) المسند إلى ضمير المخاطب الجمع في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾(البقرة: ٥٤) مؤكّدا بالناسخ الحرفيّ (إنّ) ليصوّر عظم الفعل، الذي أحدثه بنو إسرائيل بعبادتهم العجل، وأنّ هذا الفعل ستكون عواقبه عليهم، فالسياق الذي جاءت فيه هذه الآية هو طلب موسى إلى قومه أنْ يتوبوا إلى الله عمّا فعلوه أثناء غيابه عنهم(٨٥).

ب. الماضي بعد (إذ):

جاء الفعل الماضي (جعل)بعد (إذ) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(المائدة: ٢٠)، في سياق تذكير موسى _ عليه السلام _ قومه بنِعم الله التي منّ بها عليهم؛ فقد مازهم بالأنبياء، فلم يبعث على أمّة مابعث في بني إسرائيل من الأنبياء، وجاء الفعل (جعل) مرّة أخرى معطوفاً، ليبيّن المزيّة الثانية لهم بأنْ جعلهم ملوكاً(٨٦)؛ لأنّه ملّكهم بعد فرعون وبعد الجبابرة، ولأنّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء، وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله، فسمّي إنقاذهم ملكاً، والنعمة الثالثة هي مادلّ عليها الفعل (آتى) في سياق العطف على (إذ)، فقد آتاهم أنواع الإنعام والإكرام من فَلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ونحوها(٨٧)، وتشير مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه تعالى بيّن تمرّد أسلاف اليهود على موسى، وعصيانهم إيّاه مع تذكيره إيّاهم نِعَم الله وتعداده لما هو العظيم منها، وأنّ هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى(٨٨).

ج. الفعل الماضي جملة خبريّة:

أفاد مجيء الفعل الماضي(فضّل) جملة خبريّة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(الأعراف: ١٤٠)، بعد جملة استفهاميّة استنكاريّة جاءت على لسان موسى، حينما طلب منه قومه أنْ يجعل لهم آلهة يعبدونهم، بعدما مرّوا بقوم يعبدون الأصنام، أفاد الماضي تأكيد الزمن الفائت في التفضيل وقيمته، ولعلّ قيمة التفضيل قد عظمت بإسنادها إلى ضمير الرفع العائد على لفظ الجلالة، فأبانت

---

(٨٥) انظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ١/ ٣٦٦.

(٨٦) انظر الزمخشريّ، الكشاف ج١/ ٦٥٣ . ٦٥٤، وانظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٣ / ٤٦٧.

(٨٧) الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٣٠٩.

(٨٨) انظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٣/٤٦٧.

ماكان قد منحه الله لبني إسرائيل وخصّهم به من تفضيل، فقد ذكر الطبريّ أنّ الله فضّلهم على عالمِي دهرهم وزمانهم(٨٩).

د. الذم والاستفهام:

أفادت الأفعال الماضية(طال، أردتم، أخلفتم) في قوله تعالى:﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾(طه: ٨٦) في سياق الاستفهام التوبيخيّ من موسى لقومه على فعلتهم بعبادة العجل، فبعد أنْ صوّرت الآية السابقة الحالة الشعوريّة لموسى، أفاد الاستفهام مع الفعل الماضي التوبيخ والاستغراب، أيْ هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أنْ ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدي؟(٩٠).

وتتكرّر الصورة مرةً ثانيةً في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ ﴾(الأعراف: ١٥٠)، فقد جاء الفعل الماضي (خلفتموني) في سياق الذم، ليدلّ على البعديّة في الزمان، وليؤكّد على سوء فعلتهم بعدما أقاموا مقامه وكانوا خلفاءه (٩١)، وتكتمل صورة استياء النبي موسى على فعل قومه بالفعل الماضي (عجلتم) بعد همزة الاستفهام، إذ أفاد الاستفهام _هنا_الإنكار لتلك الفعلة (٩٢).

هـ. الشرط:

جاء الفعل الماضي في قوله تعالى﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾(يونس: ٨٤)، في أسلوب الشرط، وقد جاء فعل الشرط (آمنتم) منسوخاً بـ(كان) ليفيد الإغراق في الزمان، وهنا يظهر في قول موسى التشكيك بإيمان قومه، فقد اشترط عليهم في إيمانهم أنْ يتوكّلوا على الله ويخلصوا في توكّلهم (٩٣).

و. الحصر:

جاء الفعل الماضي في أسلوب الحصر على لسان هارون في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾(طه: ٩٠) مخاطباً قومه، مستنكراً فعلتهم بعبادة العجل في غياب نبيّهم موسى، فلم يرَ هارون تفسيراً آخر لما قاموا به غير أنّها فتنة قد وقعت عليهم، مؤكّداً لهم ألّا إله لهم غير الله، طالباً منهم اتّباعه وطاعته (٩٤).

يمكن لنا أنْ نلحظ أنّ الخطاب في هذا الاتجاه قد احتوى على أساليب لغويّة عديدة، فقد جاء الماضي مؤكّداً، وفعل شرط، ومحصوراً، وجاءت فيه (إذ) الظرفيّة، وجاء خبراً لجملة اسميّة، فأضفى الماضي عليها

---

(٨٩) انظر الطبريّ، تفسير الطبريّ ١٣ / ٩٧.

(٩٠) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ /٢٢٣.

(٩١) انظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٤ / ٣٨٥، والزمخشريّ، الكشاف ٢ / ١٥٢، والصابونيّ، صفوة التفاسير ج١/٤٤٠.

(٩٢) انظر الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٤/ ٣٩٣، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ٢ / ١٥٢.

(٩٣) انظر الزمخشريّ، الكشاف ج٢/ ٣٤٤، والأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٥ / ١٨٢.

(٩٤) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ /٢٢٥.

الزمن، وقد ورد في هذا الاتجاه أيضاً بعض الأساليب الإنشائيّة كالاستفهام والذم، وقد أغنت الأساليب سابقة الذكر الخطاب، وأدّت وظائف معنويّة.

سادساً: الخطاب من بني إسرائيل إلى موسى عليه السّلام.

لقد اتّخذ الفعل الماضي في هذا الاتجاه من الخطاب أشكالاً عديدة، نجملها فيما هو آتٍ:

أ.الماضي بمعنى المضارع:

في قوله تعالى:﴿ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾(البقرة: ٧١) نلمس خروج الصيغة عن أصل الوضع، وهو ما يُسمّى بالجهة، فقد أفاد الفعل الماضي (جئت) معنى الحاضر، بقرينة الظرف (الآن)، ويكون بذلك قد مُزج بين الزمن والجهة، وعدّدت به اتجاهات الزمن الواحد، فالجهة هي التحديد الزمنيّ الجديد، الذي تفيده القرائن في السياق، يُطلق عليها في اللغة الإنجليزيّة(tense)، ويقابل اصطلاح الزمن الصرفيّ في اللغة العربيّة، واصطلاح (aspect) يُقابل اصطلاح الجهة، فالجهة _إذاً_هي تخصيصٌ لعموم ما في الفعل من حدث وزمن وإسناد(٩٥).

ولعلّ الفائدة المرجوّة من هذا الاستعمال، هي تصوير حالة الترقّب، التي كان يمرُّ بها بنو إسرائيل، وهم ينتظرون من نبيّهم أنْ يبيّن لهم أوصاف البقرة، التي أمرهم الله بذبحها (٩٦).

ب. المصدر المؤول:

الفعل الماضي (عهد) في قوله تعالى:﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ ﴾(الأعراف: ١٣٤)، بعد (ما) المصدريّة، والسياق يفسّر لنا قيمة الفعل الماضي، والمصدر المؤول عامّة؛ إذ لمّا وقع قوم موسى في البلاء والطوفان أرادوا أنْ يشفع لهم نبيّهم بالدعاء وكرامة النبوّة، فاستذكروا ما كان عنده من عهد، وهي النبوّة (٩٧).

ج. الشرط:

جاء الفعل الماضي (كشفت) في قوله تعالى:﴿ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾(الأعراف: ١٣٤) فعلاً للشرط، فبعد أنْ أصاب قوم موسى الطوفان وحلّت بهم المشكلات، لم يسلّموا لموسى كما جاء في بداية الآية الكريمة، بل إنّهم اشترطوا على نبيّهم لإيمانهم أنْ يزيل عنهم البلاء ويكشفه، وهنا تظهر حقيقة النفس اليهوديّة المشكّكة بل المنكرة، القائمة على المصلحة والمنفعة، ويظهر فعل الشرط (كشفت) المسند إلى ضمير المخاطب العائد على نبيّ الله موسى مدى البعد والفجوة بين قوم موسى وربّهم.

د. النفي:

جاء الفعل الماضي (أخلفنا) المنفي بـ(ما) في قوله تعالى:﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾(طه: ٨٧) في جواب بني إسرائيل على نبيّهم موسى، بعد أنْ رأى منهم ردّة وإخلافاً للموعد، إذ كانوا قد وعدوه بأنْ يتمسّكوا بدين الله وسنّة موسى عليه السلام، وألّا

---

(٩٥) انظر تمّام حسّان، اللغة العربيّة (معناها ومبناها) ص٢٦، وكمال رشيد، الزمن النحويّ ص١٠٥.

(٩٦) انظر الزمخشريّ، الكشاف / ١٨١.

(٩٧) انظر الزمخشريّ، الكشاف ٢ / ١٤٠، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢/ ٢٢٣.

يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل(٩٨)، لقد حمل النفي _ هنا _ تبرئة النفس ممّا ارتكبوه وإرجاع السبب إلى أمر خارج عنها، متحجّجين بأنّهم مكرَهون.

هـ. المبني للمجهول:

أفاد الفعل الماضي (حمّل) في قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾(طه: ٨٧) المبني للمجهول على لسان بني إسرائيل لنبيّهم موسى معنى الضّعف؛ ليبرئوا أنفسهم ممّا فعلوه، مرجئين السبب إلى ما هو خارج عن إرادتهم وطاقتهم واختيارهم، وهو أنّهم غُلبوا وفُتنوا من جهة السامريّ وكيده، (٩٩)، ولا يمكننا إغفال التوكيد بالتضعيف في هذا البناء وما أضافه من قوة لتوكيد تلك الفكرة.

وفي قوله تعالى:﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ ﴾(الأعراف: ١٢٩) حمل الفعل الماضي المبني للمجهول (أُوذينا) المسند إلى بني إسرائيل معنى الضعف والانكسار الذي كان بنو إسرائيل يكابدونه من قوم فرعون، وقد حذف الفاعل للعلم به، وهو فرعون الحاكم والسيّد، فقد أدّى حذفه _ هنا _ إلى تركيز النظر على الحدث (الإيذاء) دون المُحدِث(قوم فرعون)(١٠٠).

يمكن لنا الخلوص في هذا الاتجاه إلى أنّ الفعل الماضي قد جاء في أحوال وهيئات عديدة، فقد خرج عن أصل وضعه ودلّ على الزمن الحاضر بوجود قرينة، وجاء الماضي مصدراً مؤولاً، ومبنيّاً للمجهول ومنفيّاً، وفعل شرط، مؤدّياً معاني عديدة.

سابعاً: الخطاب من عيسى عليه السّلام إلى بني إسرائيل:

لم يظهر الفعل الماضي كثيراً في هذا الاتجاه من الخطاب، على عكس الفعل المضارع، الذي شاع وكثر في هذا الاتجاه؛ ولعلّ السبب في ذلك هو ما يؤدّيه كل نوع من الأفعال، فلم تكن دعوة عيسى تحتاج إلى استعراض نِعم الله وتذكير بني إسرائيل بالماضي بقدر ما كانت تحتاج من توكيد المعجزات.

- **التوكيد:**

جاء الفعل الماضي (جاء) المسند إلى ضمير المتكلّم في قوله تعالى:﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(آل عمران: ٤٩) مؤكّداً بطريقين:(الحرف الناسخ (إنّ) وأداة التوكيد(قد)، وقد أدّى التوكيد في سياقه معنى عظيماً؛ فالقوم ينكرون فِعلة مريم وولادة عيسى دون أبٍ ثم نبوّته ورسالته، ولعلّ ما طلبه بنو إسرائيل من نبيّهم عيسى من آيات حسيّة، يؤكّد الحالة التي كانوا عليها من تكذيب وكفر وإنكار، فقد جاء الخبر إنكاريّاً، موضّحاً حالة قبول الخبر لدى المتلقّي، وقد أدّى الفعل المضارع أهميّة كبيرة في إظهار تلك المعجزات.

وفي الآية التالية في قوله تعالى:﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(آل عمران: ٥٠) خلا الفعل الماضي (جاء) المسند لضمير المتكلم من المؤكّدات فقد جاء خبراً ابتدائيّاً، ويمكن الوقوف على سبب خلوّه منها_ أي المؤكّدات _ هو أنّ الأمر لم يكن بداية المواجهة بين عيسى وقومه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ذُكرت في هذه الآية التوراة التي جاء بها موسى من قبل، وكذلك السياق العام لهذه الآية يتضمّن

---

(٩٨) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٦/ ٢٦٨، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١/ ٤٣٤.

(٩٩) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٦/ ٢٤٨، والزمخشريّ، الكشاف ٣/ ٨٢، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢/ ٢٢٣.

(١٠٠) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١/ ٤٣١.

التشريعات التي جاء بها عيسى في الإنجيل، طالباً من بني إسرائيل اتّباعها والتقيّد بها، فأحوال المتلقين في هذه الآية لم تستدعِ التوكيد والإثبات كما في الحالة السابقة.

ثامناً: الخطاب من بني إسرائيل إلى عيسى عيه السّلام:

لم يحظَ هذا الاتجاه من الخطاب بالفعل الماضي كثيراً، فقد ورد الفعل الماضي في هذا الاتّجاه مرّتين في قوله تعالى﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾(آل عمران: ٥٢)،الأولى (أحسّ) جاء فعل شرط بعد الأداة (لمّا)، وقيل في معنى أحسّ: رؤية العين أو القلب، وقال الفراء: وجد، وقال أبو عبيدة: عرف، وقيل:علم، وقيل: خاف، والكفر _ هنا _ جحود نبوّته وإنكار معجزاته[١٠١]، فقد أدّى الفعل الماضي(أحسّ) المسند إلى الفاعل (عيسى) الحالة التي كانت تنتابه مع قومه بعد جحودهم وإنكارهم.

والثانية في الفعل الماضي على لسان الحواريّين في قولهم (آمنا)، في ردّهم على نبيّهم عيسى، فكان للفعل الماضي _هنا _ أهميّة خاصّة، فقد أفاد خلوص إيمان الحواريّين من ناحية، والإجابة الشافية لما أراده عيسى بتساؤله عن أتباعه وأنصاره.

تاسعاً: الخطاب بين بني إسرائيل أنفسهم.

في هذا الاتّجاه من الخطاب جاء الماضي في أساليب عديدة يمكن من خلاله الوقوف على البنائيّة النفسيّة لبني إسرائيل من خلال الفعل الماضي فيما كانوا يتبادلونه من خطاب، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال الأساليب التالية:

أ. **الشرط:**

جاء الفعل الماضي (آمنّا) مقول القول في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(البقرة: ٧٦) – في سياق التوصيف الإلهيّ عن بني إسرائيل، ويبين من خلالها ما كان يَميزُ بني إسرائيل من مجاملة ونفاق وما طُبعوا عليه من خلّة النفاق، فهم يظهرون غير ما يبطنون، وسياق هذه الآية ومناسبة نزولها تبيّن ما وراء الفعل الماضي، إذ نزلت هذه الآية في الأنصار الذين كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوار ورضاعة، وكانوا يودون لو أسلموا[١٠٢].

ويظهر الفعل الماضي في قوله تعالى:﴿ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ ﴾(المائدة: ٤١) ما كان اليهود يظهرونه من عداوة للنبي محمّد _صلّى الله عليه وسلّم_ وقد أدّى فعل الشرط الماضي المبني للمجهول (أوتيتم) ما كان يريده اليهود من ردّ من الرسول محمد في الحكم في حادثة الزنا، إذ يوصون بعضهم بأنْ يقبلوا بالجلد ولا يقبلوا بالرجم [١٠٣]، فيكون الحكم وفق أهوائهم وليس كما ينبغي.

---

(١٠١) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٢ / ٤٩٤، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ١ /٣٦٦، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ١٨٦.

(١٠٢) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ١/ ٤٤٣ والصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٦٢.

(١٠٣) الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٢ / ٤٩٤، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ١ /٣٦٦، وانظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١/ ١٨٦.

ب. صلة الموصول:

الفعل الماضي(فتح) المسند إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(البقرة: ٧٦) الواقع في صلة لاسم الموصول(ما) أظهر ما كان عند بني إسرائيل في التوراة من صفات وأخبار عن سيدنا محمّد_ صلّى الله عليه وسلّم_، وهنا تظهر صفة الكيد والإخفاء للحقائق [١٠٤]، التي كانت وما زالت سمة ملازمة لبني إسرائيل حتى يومنا هذا.

ج. البناء للمجهول:

جاء الفعل (آتى) المسند إلى ضمير الجمع المتكلّم، المبني للمجهول في قوله تعالى:﴿ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔاۚ ﴾(المائدة: ٤١) لبيان صفة نفسية لبني إسرائيل، فقد بيّن الفعل المجهول وفاعله المحذوف العائد على سيدنا محمّد_ صلّى الله عليه وسلّم_، مقدار الحقد والكره الذي يكنّه اليهود لسيد المرسلين، وأنّهم مضطرّون لمعرفة رأيه في حادثة الزنا وأخذهم منها ما يتوافق وأهواءهم.

د. المضارع الذي أفاد معنى الماضي:

أدى الفعل المضارع المجزوم (لم يبصروا) على لسان السامريّ في قوله تعالى:﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾(طه: ٩٦) معنى الماضي؛ وذلك لاحتوائه على معنى النفي، فالحدث قد انتهى وتمّ، ولمّا أراد أنْ يقص السامريّ لموسى ما تمّ في غيابه جيء بالمضارع ليؤدّي الحدث وما كان فيه من حركة واستمرار [١٠٥].

هـ. الجناس الاشتقاقيّ:

جاء الجناس الاشتقاقيّ في قوله تعالى:﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ (طه: ٩٦) مرتين على لسان السامريّ في الفعل الماضي في الأولى: (بصرت _ لم يبصروا)، فقد أدّى الفعل الماضي والمضارع (لم يبصروا) الذي أفاد معنى الماضي، لتبيّن مقدار المكر واليقظة والحنكة لدى السامريّ، وفي المقابل بيّن لنا ماكان لدى بني إسرائيل من ضلال وتقلّب وكفر، إذ سرعان ماكفروا، يقول سيّد قطب في تفسير هذه الآية:" ولكنّ الاستعباد الطويل والذلّ الطويل في ظلّ الفرعونيّة الوثنيّة كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها والوفاء بالعهد والثبات عليه، وترك في كيانهم النفسيّ خلخلةً واستعداداً للانقياد والتقليد المريح، فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلّها وتنهار أمام أوّل اختبار"[١٠٦] والمرّة الثانية للجناس الاشتقاقيّ جاءت مع الفعل الماضي المسند إلى ضمير المتكلم وما تلاه من مصدر (قبض _ قبضة)، فقد أكّد الفعل وبيّن ماكان عليه السامريّ من يقظة وحيلة، وأبانت حقيقة السحر الذي أضلّ به السامريّ بني إسرائيل.

---

(١٠٤) الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٦٢، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ١/ ١٨٤.

(١٠٥) الصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ / ٢٢٤وانظر الزمخشريّ، الكشاف ٣ / ٨٥.

(١٠٦) سيّد قطب، في ظلال القرآن ٢٣٤٦، وانظر الزمخشريّ، الكشّاف ٣ /٨٤ والصابونيّ، صفوة التفاسير ٢ /٢٢٣.

بعد الخلوص من هذا الاتجاه نلحظ أنّ الفعل الماضي أدّى فيه دوراً مهماً، فقد جاء في أسلوب الشرط، وفي صلة الموصول، وجاء مبنيّاً للمجهول، وفي الجناس الاشتقاقيّ، وقد انزاح الفعل المضارع في هذا الاتجاه عن أصل وضعه ودلّ على المضيّ.

عاشراً: الخطاب من الله سبحانه وتعالى إلى محمّد _صلى الله عليه وسلم:

جاء هذا الاتجاه ليبيّن لنا ما كان عليه حال اليهود أيام سيّدنا محمد، فيذكّر الله نبيّه محمداً بما كان عليه اليهود من أيام أنبيائهم، فيأخذ حذره والمسلمين من ناحية، ويسرّي عن نفسه في دعوته بإيراد قصص الأنبياء مع أقوامهم ومنهم بنو إسرائيل من ناحية أخرى، وقد جاء الفعل الماضي في هذا الاتجاه من الخطاب في سياقات متعدّدة، نجملها فيمايلي:

أ. أسلوب الشرط:

وقد أدّى فعل الشرط الماضي (جاء) وجوابه الفعل الماضي (نبذ) وأداة الشرط الزمانيّة (لمّا) في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: ١٠١) معنى التأكيد على أنّ نقض العهد هو سمة ملازمة لبني إسرائيل، ومظهر ثابت في خطابهم، إذ إنّه كان ضمن الخطاب الذي أخذه الله عليهم أنْ يؤمنوا بكلّ رسول يبعثه، وأنْ ينصروه ويحترموه، ويستوي في النبذ الذي فعله بنو إسرائيل كتاب الله الذي معهم، المتضمّن البشرى بهذا النبي والكتاب الجديد، وقد نبذوه أيضاً، وفي ذلك من السخرية لما فعلوه من جحدهم الكتاب وتركهم العمل به، وإبعاده عن مجال تفكيرهم وحياتهم(١٠٧)، فقد أظهر الله في الآية السابقة العلّة الكامنة وراء كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البيّنات التي أنزلها الله، إنّه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلّا الإيمان بتلك الآيات(١٠٨).

وقد جاء الفعل الماضي (اتّبع) في قوله تعالى:﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَـئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(البقرة: ١٢٠) في أسلوب الشرط في خضم الحديث عن العقيدة ومعركتها، التي لم تعد خافية، إذ يحذّر الله نبيّه من اتّباع أهوائهم، فليس ما ينقصهم هو البرهان والاقتناع بأنّ النبي على حقّ، وأنّ ما جاء به هو الحقّ، فلن يرضيهم إلّا أنْ يتّبع ملّتهم(١٠٩).

ب. صلة الموصول:

جاءت صلة الموصول الماضويّة في اللآية السابقة من سورة البقرة (جاءك من العلم) بعد الموصول (الذي) لتؤكّد على حقيقة بني إسرائيل وتذكّر بطباعهم المعهودة، من نقضهم العهود وتكذيبهم بالأنبياء والمرسلين بعد استيفاء الإخبار عمّا كان منهم خاصّةً، ومن أهل الكتاب عامة، وهي في الوقت ذاته رسالة للمسلمين وتشريع ربانيّ يبيّن لهم أساس التعامل مع أهل الكتاب، فالحقيقة الربانيّة حصرت رضا أولئك عن المسلمين باتباع الملّة.

---

(١٠٧) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ /٧٣، وسيّد قطب، في ظلال القرآن ٩٤.

(١٠٨) انظر سيّد قطب، في ظلال القرآن ٩٤.

(١٠٩) انظر الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٨١، وسيّد قطب، في ظلال القرآن، ١٠٨، والأندلسيّ، تفسير البحر المحيط ٥٣٩/١.

ج. التوكيد:

أدّى الفعل الماضي(جاء) المؤكّد بـ(لقد) في قوله تعالى:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾(يونس: ٩٤) قيمةً جليلةً، فالقارئ لهذه الآية قد يستغرب لمحتوى الخطاب بوجود أداة التوكيد، ومنْ يعد إلى سياق السورة ومناسبتها يدرك أنّ هذا التوجيه يشي بما كان وراءه من شدّة الموقف وتأزّمه في مكة بعد حادثة الإسراء، وقد ارتدّ بعض من أسلموا لعدم تصديقهم، وبعد موت خديجة وأبي طالب واشتداد الأذى على رسول الله ومن معه، وبعد تجمّد الدعوة تقريباً في مكة بسبب موقف قريش العنيد، وكل هذه الملابسات تلقي ظلالها على قلب رسول الله فيسرّي عنه ربّه بهذا التوكيد، وبعد ذلك القصص الموحى، ثم إنّه تعريض بالمشكّكين الممترين المكذبين(١١٠).

ونجد في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(البقرة: ٩٩) أنّ الفعل الماضي المؤكّد(أنزل) المسند إلى ضمير الجمع المتكلم العائد على لفظ الجلالة، لم يفد التوكيد للقرآن بذاته؛ فتأكيده بات أمراً واقعاً، ولكنّ التأكيد _هنا_ يكشف علّة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البيّنات، وهي الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلّا الإيمان بتلك الآيات(١١١)، ونجد الأمر ذاته قد تكرّر في الآية السابق ذكرها من سورة يونس، إذ أفاد التوكيد للماضي (جاء) بالأداة (لقد) أنّ ما كان من كفر اليهود لم يكن لأمر يتعلّق بما أنزل من آيات ، وإنّما لأمر عائد إلى فساد فطرتهم.

د. المصدر المؤول:

جاء المصدر المؤول في قوله تعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾(البقرة:١٠٩) مكوناً من (ما) والفعل الماضي (تبيّن) لتضيف الزمن الماضي للحدث، وتفيد أنّ أهل الكتاب على يقين بما عندك حتى من قبل أنْ تبعث يا محمد، فقد تبيّن لهم بالبراهين الساطعة أنّ دين محمد هو الحق، وهنا إشارة إلى ما كان في كتبهم من بشرى وذكر للرسول محمد _صلّى الله عليه وسّلم– رسول آخر الزمان(١١٢).

بعد الخلوص من هذا الاتجاه نلحظ أنّ الفعل الماضي أدّى فيه دوراً مهماً، فقد جاء في أسلوب الشرط، وفي صلة الموصول، وجاء مبنيّاً للمجهول، وفي الجناس الاشتقاقيّ، وقد انزاح الفعل المضارع في هذا الاتجاه عن أصل وضعه ودلّ على المضيّ.

---

(١١٠) سيّد قطب، في ظلال القرآن ١٨٧٢، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ٢ / ٣٥١، والصابونيّ، صفوة التفاسير ٥٥٥/١.

(١١١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٩٣، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ١/ ١٩٧.

(١١٢) الصابونيّ، صفوة التفاسير ١ / ٧٧، وانظر الزمخشريّ، الكشاف ١ / ٢٠٣.

الخاتمة:

لقد توصّلت الدراسة إلى عدد من النتائج، أهمها ما يلي:

- تفاوت استعمالات الفعل الماضي من اتّجاه لآخر ضمن مستويات الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل.
- تفاوت استعمالات الأساليب اللغويّة كالشرط والنفي والاستفهام والتوكيد وغيرها، وفق اتجاه الخطاب.
- الأفعال في السياق القرآنيّ تكتسب دلالتها الزمنيّة من السياق الواردة فيه، لا من أصل وضعها، فنجد الماضي قد أفاد معنى المضارع، وأفاد المضارع معنى الماضي، وهو مايُعرف بالجهة.
- تحوّلات الأفعال في السياق القرآنيّ هي من أبرز الظواهر الأسلوبيّة في التعبير القرآنيّ، وأكثرها وروداً، وتمثّل مظهراً من مظاهر الإعجاز اللغويّ والبيانيّ في القرآن الكريم.
- الخروج عن مقتضى الوضع، والمغايرة في الأفعال، أفصحت . في جلّها . عن دلالات نفسيّة وفكريّة واجتماعيّة.
- أدّت بعض الأساليب اللغويّة دوراً كبيراً في تحديد الدلالة الزمنيّة للأفعال؛ فالقيمة الأدائيّة لتلك الأساليب نَحَت بالزّمن عن أصل وضعه؛ ليتلاءم وأحوال المخاطبين العقديّة والاجتماعيّة والنّفسيّة.
- جاء الفعل الماضي في الخطاب القرآنيّ لبني إسرائيل مؤكَّداً، لإضفاء الزيادة وإثبات الفاعل، وبخاصة في مواضع ذكر نِعم الله تعالى عليهم، وفي مواضع التّأكيد على كفرهم وتكذيبهم.
- إنّ دلالة الماضي المبني للمجهول كانت _ في غالبها _ للتركيز على أهميّة الفعل دون فاعله، وتأكيد حقيقة الفعل المراد الخلوص إلى معناه.
- أدّت جملة الصّلة الماضويّة في الخطاب القرآني لبني إسرائيل دلالات عديدة وفقاً للاسم الموصول المستخدم في الخطاب.
- أدّى المصدر المؤول في الخطاب القرآني لبني إسرائيل دلالة الفاعليّة والحدوث، بالإضافة إلى دلالته الزّمنيّة، إذْ لو جاءت مصادر صريحة، لدلت على الحدث دون الزّمن.

قائمة المصادر والمراجع:

- الأستراباذيّ، رضي الدين، **شرح كافية ابن الحاجب**، تحقيق إميل يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- أوكان، عمر، **مدخل لدراسة النصّ والسلطة**، ط٢، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨١ م.
- البحيريّ، سعيد حسن، **علم لغة النص**، المفاهيم والاتجاهات، ط١، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، لونجمان، القاهرة، القاهرة، ١٩٩٧م.
- الجزار، محمد فكري، **لسانيّات الاختلاف**، الخصائص الجماليّة لمستويات بناء النص في شعر الحداثة، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠١م.
- حسّان، تمّام، **البيان في روائع القرآن (دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنص القرآنيّ)**، عالم الكتب، القاهرة ط١، (١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
- حسّان، تمّام، **اللغة العربيّة معناها ومبناها**، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٣م.
- أبو حيّان الأندلسي، محمّد بن يوسف (ت ٧٥٤هـ)، (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط١.
- أبو خرمة، غنية لوصيف، **الاتساق والانسجام في قصيدة مديح الظل العالي لمحمود درويش**، مقاربة لسانيّة نصيّة، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، معهد اللغات والأدب العربيّ، ٢٠٠٩م.
- الخطابيّ، محمد، **لسانيات النص**، المركز الثقافيّ العربيّ، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (ت ١٤٠٣هـ)، **إعراب القرآن وبيانه**، دار الإرشاد للشؤون الجامعيّة، دار ابن كثير، حمص، سورية، ١٤١٥ هـ.
- ذريل، عدنان، **النص والأسلوبيّة بين النظريّة والتطبيق**، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.
- رشيد، كمال، **الزمن النحويّ**، دار عالم الثقافة، عمّان، الأردن، ١٤٢٨هـ _٢٠٠٨م، ص ٢٥.
- الزجّاج، **إعراب القرآن**، تحقيق ودراسة إبراهيم الأبياريّ، دار الكتب الإسلاميّة، ط٢، ١٩٨٢م.
- الزركشيّ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر المصريّ (ت ٧٩٤ هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، البابي الحلبيّ ط١، ١٩٧٥م.
- الزّمخشري، جار الله محمود، **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
- ابن سالم، فيروز، **الدلالة الصرفيّة في الخطاب القرآنيّ (سورة يس أنموذجاً)**، رسالة ماجستير جامعة الشهيد حمد لخضر، الجزائر، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥ م.
- السامرائيّ، فاضل صالح، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ**، دار عمّار، عمان، الأردن.
- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠ هـ)، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن(ت٩١١هـ)، (١٤١٣هـ_ ١٩٩٢م) **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرّسالة.
- الشريف الجرجانيّ، علي بن محمد بن علي الزين، **التعريفات**، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
- الشهريّ، عبد الهادي ظافر، **استراتيجيات الخطاب**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط١، لبنان، ٢٠٠٤م.

- الصابونيّ، محمّد علي، **صفوة التفاسير**، دار القرآن الكرين، بيروت، لبنان.
- الصبّان، أبو العرفان محمد بن علي الصبّان الشافعيّ (ت ١٢٠٦ هـ)، **حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك**، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ م، ص٢٥٤.
- صحراويّ، مسعود، **المنحى الوظيفيّ في التراث اللغويّ العربيّ**، مقالة منشورة في مجلة الدراسات اللغويّة، إصدار مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرياض، المملكة العربيّة السعوديّة، المجلّد الخامس، العدد الأول، ٢٠٠٣ م.
- عبادة، محمّد إبراهيم، **الجملة العربيّة (دراسة لغويّة نحويّة)**، منشأة المعارف، الإسكندريّة.
- عبد الرحمن، طه، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط ٢، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠م.
- عزّام، محمد، **النص الغائب (تجلّيات التناص في الشعر العربيّ)**، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠١ م.
- عفيفي، أحمد، **نحو النص (اتّجاه جديد في الدرس النحويّ)**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيليّ الهمدانيّ(ت٧٦٩هـ)، **شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار مصر للطباعة، ط٢٠، ١٤٠٠ هـ _١٩٨٠م.
- عيد، محمد عبد الباسط، **النصّ والخطاب (قراءة في علوم القرآن)**، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩.
- فاضل، أحمد عبد الجبار، **أشكال الخطاب القرآنيّ، دراسة في ضوء نظريّة الحقول الدلاليّة**، مجلة مداد الآداب، كليّة الآداب، الجامعة العراقيّة، بغداد،٢٠١٤م، العدد التاسع.
- الفقي، صبحي إبراهيم، **علم لغة النص بين النظريّة والتطبيق**، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، القاهرة.
- المراديّ، **الجنى الدّاني في حروف المعاني**، تحقيق: فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- مرتاض، عبد الملك، **نظريّة النص الأدبيّ**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،٢٠٠٧م
- المطلبيّ، مالك، **الزمن واللغة**، ط١، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، **لسان العرب**، مجلد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن هشام الأنصاريّ، جمال الدين عبد الله (ت٧٦١هـ)، **أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك**، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعيّ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن هشام الأنصاريّ، جمال الدين عبد الله (ت٧٦١هـ)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي عبدالله، راجعه سعيد الأفغانيّ، طبعة ٣، دار الفكر، ١٩٧٢م.
- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، **شرح المفصّل**، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت.
- يوسفيّ، إسماعيل، **السياق وأثره في توجيه الخطاب القرآنيّ**، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر.